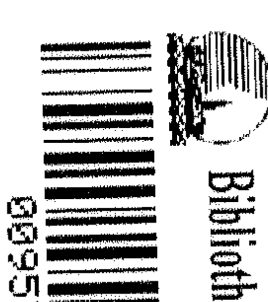
عاصم الجندي

عز الدين القسام

رواية تاريخية





عز الدين القسام

عاصم الجندي

عز الدين القسام

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠-١١ - تلفون: ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان

شباط (فبراير) ١٩٧٥

تقديم

ان تحاول كتابة رواية تاريخية ، لشيء صعب وشاق ، فأنت مضطر ان تحافظ على اكبر قدر ممكن من الحقيقة التاريخية . وانت مرغم ايضا على سد الثغرات وتلوينها من حين الى آخر ، من عندياتك .

مثل هذه الرواية ما يزال جديداً على دنيانا .

وشخصية القسام من اخطر واروع الشخصيات . الا انني ، وخلال اشهر مضت ، لم اوفق الى اكثر مما أوردت من الحقائق عنه .

كل ما اتمناه هو الا يحاسبني الآخرون على اساس انني مؤرخ .

ان كان هناك من يجب ان اعتذر له عن كل تقصير فهو القسام نفسه ورفاقه الابطال الذين يعتبرون بحق اول من خط طريق العمل الفدائي امام شعبنا .

اعرف ان قسما منهم ما يزال على قيد الحياة . منهم على ما اعرف ، ابو ابراهيم الكبير ، والشيخ سليمان ابو

حمام ، ومحمد عبد القادر .. الخ وقد باءت كل محاولاتي للالتقاء بهم بالفشل واكتفيت بمقابلات اجريت معهم في بعض المجلات والصحف الفلسطينية ، كما انني التقيت بآخرين كانوا من رفاقه او ادعوا ذلك فلم اجد لديهم ما يستحق الاهتمام به .

ما كتبته اليوم نصفه من التاريخ ونصفه الآخر رواية وتأليفا — وغايتي كما كانت في روايتي السابقة «كفرقاسم» — ان تستفيد منه السينما العربية اولا ، وان اسهم ولو اسهاما جزئيا في خدمة قضيتنا الكبرى « القضية الفلسطينية » فهل اصبت القصد ؟

اخيرا ، شكرا لمركز الابحاث الفلسطيني ، لما قدمه من المساعدة ، على الصعيد الوثائقي .

— عاصم —

الفصل الأول

بدايات القسام

كان ربعة على شيء من النحول الذي يوحي بكثير معاناة . تحس وانت ترنو اليه ان روحه تعمل في جسده « كما يعمل السيف في غمده » . امتزجت في عينيه حدة أقرب الى الشراسة ، مع حزن عميق ، دقيق ، يغتسل بفرح طفولي سمح .

كان يقبل علي من بعيد ، ما استطعت الا ان اتوقف ، احسست بقوة غامضة تجذبني اليه فاعترضت طريقه ، وكان ذلك في ضواحي مدينة « جبلة » الصغيرة المفعمة بالهدوء والسكينة ، الغافية على الشاطيء الغربي لسوريا ، تطل عليها من شاهق جبال العلويين بمهابة ووعورة ..

ـ صباح الخير يا عم .

ـ صباح الخيرات يا بني . أمر !؟

ـ هل لي بالتعرف اليك ؟

وابتسم ابتسامة راضية حانية .

ـ على الرحب والسعة . ولكن . فيم ذلك ؟
ـ احسست بشيء غامض يجذبني اليك ، لكأنك غريب عن هذه الدنيا ، او انك جئت اليها بعد غياب طويل .
ـ غريب عنها ؟! معاذ الله ، فهي وكل ذرة من دمي صنوان، اما انني اعود اليها بعد طول غياب فهو كذلك . لقد درجت هنـا ، وترعرعت في بيئة فلاحية اصيلة. اعرفها زاوية زاوية ، وحجرا حجرا هذه الديار ، انها بلدتي ، وانهم اهلي وعشيرتي . ومن تكون انت ، فمن المتعارف عليه ان يقدم طالب المعرفة نفسه اولا . اليس كذلك ؟

ـ عفوك ، فأنا مشتت الذهن قليلا . انني كاتب يحترف البحث عن قصة غريبة . الا ان الغرابة ليست وحدها رائدي في اسفاري . ان لم تكن القصة تعود بالنفع على شعبي ، وتغني مستقبل الفقراء الذي بـه اتفاءل وله اعمل وانتظر ، فانها لا تعنيني في شيء !؟

اسمي ! .. ولم يترك لي فرصة لاكمل . لكأنه يعرفني دون ان اقدم له نفسي ولم يأت طلبه هذا الا من قبيل اللياقة والتلطف .

ـ اظنك اصبت القصد . ورب صدفة خير من الف ميعاد.

ويسرح بعيدا عني لكأن عينيه تقومان بعملية مسح دقيقة وسريعة ، لكل تفصيلات الجرود المحيطة بنا ثم يتابع .

ـ ان لدي قصــة غريبــة ، لحمتهــا وسداهــا الفقراء ومستقبلهم الذي عنه تتحدث . الا انها حافلة بالمشاق والآلام وايضا بالامل والاشراق . ولست ادري ان كانت

لديك القدرة على مواكبتي عبرها . فالرحلة شاقة ومريرة ، الا ان العبر فيها كثيرة وغنية .

ـ هو ذاك ، هو ذاك . هذا ما جئت ابحث عنه وما طال انتظاري في سبيل الوصول اليه .

ـ اسمي عز الدين القسام من جبلة . مدينتي هذه . ومن مواليد ١٨٧١ م . عرفت كل انواع الفاقة والبؤس في طفولتي . تشققت يداي هاتان من زرع الدخان وشكه و « الحصيدة » وكنت ارى بأم عيني منذ ايام العثمانيين ، مواسمنا تذهب الى رجال السلطة والاقطاع ورجال الدين المنتفعين ، وكان كل ذلك يحز في نفسي ويحفر فيها اعمق أخاديد النقمة والتمرد على الظلم .

ـ ولكنني اراك بصحة جيدة ، وتبدو عليك سيماء رجال الدين الحقيقيين .

ـ احسنت التعبير يا بني . فهناك الحقيقيون وهم القلة . وما اكثر المزيفين والمتاجرين . على أية حال ، كفالبية ابناء الطبقة الفقيرة في بلادنا لم يكن لي اختيار نوع الدراسة التي يجب ان انتهج . وكان التعليم الديني هو المتيسر اكثر من سواه فقد كانت حياتي في البداية موزعة بين العمل في الحقل والكتاتيب « المشايخ » حيث كنا ندرس القرآن والصرف والنحو ومبادىء الحساب . وما ان بلغت اليفاعة ، حتى قيض لي ان اذهب في منحة

الى جامعة الازهر . وكانت دراسة الدين تعفي صاحبها من الجندية حينذاك . وهكذا كان .

ـ هل كان الهدف من دراستك التهرب من الجندية .

ـ يا بني ، أرى ان نفسك قصير ، وهو امر لا يليق بكاتب مثلك . المفاهيم تتغير وتتبدل مع الزمن . فجندية تلك الايام غيرها في ايامكم هذه . رغم انهما ، اذا تعمقنا الاشياء كما يجب ، تلتقيان في اكثر من محطة . كنا نخدم في جيش مستعمر . ونحارب في بلاد لا نعرفها . وفي سبيل غاية لا تعود على شعبنا بغير العذابات والشرور .

ـ حسنا وبعد ؟

ـ هناك التقيت بالشيخ العلامة الاستاذ محمد عبده فكان خير معلم واستاذ .

ـ اراك تكثر من ازجاء الالقاب له .؟

ـ انه في الحقيقة رجل من الافذاذ يا بني والذين قـل ان يجود الزمان بمثلهم وعلى يديه تعلمت اول مبادىء العدل والثورة ضد الظلم والاضطهاد . وباعتقادي لو ان ظروف حياته الموضوعية كانت افضل لكان لنا منه ثائر عظيم . رغم انه غير بعيد عن مواقع الثورة مـن الناحية الاجتماعية والاصلاحية ، وحتـى في مجال الدين .

ـ حتى الآن لا ارى وجه الغرابة في ما رويت . واخشى ان تتهمني في جديد بقصر النفس .

ويبتسم ابتسامته الراضية الحانية من جديد .

ـ « شوف » يا بني لقد تقدم بي العمر وطعنت بالسن ولم تعد لي همة الشباب التي تنجدني لمتابعة الرحلة الطويلة معك . سأحدثك بالبداية فقط ثم اترك لـك ان تزور مسارح القصة بنفسك وتتعرف على تفصيلاتها . حتى اذا اعياك الشوط وانهكتك المسافات كنت رهن اشارتك لازيدك ايضاحا او لافك لك غوامض بعض التفصيلات .

ـ اعدك بطول الاناة ، وحسن الصبر ، فهل لـك ان تحدثني بتلك البداية .

ـ منذ ايام الدراسة الاولى ، وطنت النفس على الانتقام من مستغلي الفقراء الذين نشأت بينهم . وقد بدأت اتشرب مبادىء الثورة على يدي استاذي الشيخ محمد عبده . وعندما عدت ، بعمتي وقفطاني هذين اللذين ترى، وكانا خير سلاح في يدي، كانت البلاد قد تخلصت من الاستعمار العثماني لتقع في استعمار امر وادهى ، اكثر حداثة وذكاء من سابقه العجوز المهترىء وقد وجدت ان بوادر الثورة على الافرنسيين قـد بـدأت بالاشتعال في اكثر من قرية ومدينة وجبل من سورية . فكان ان قررت الالتحاق بثورة الشيخ البيطار مع اثنين من رفاق الطفولة واكبا حكاية ثورتي على الظلم في اغلب مراحلها ، وتجشما معي في سبيلها الشيء الكثير .

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ الا ترى الى تلك « الحاكورة » الصغيرة هناك . بين شجرات التين والزيتون .

ـ اجل .

ـ اذهب الى هناك ، وسترى بنفسك كل شيء ولكـن اوصيك بأدب الاستماع وحسنه . راقب ، واسمع ، ودون ، ولكن حذار من التدخل في مجريات الاحداث فتفسد كل شيء .

ـ حسنا . الى اللقاء .

ـ على بركات الله يا بني .

وغادرته ، خلفته ورائي كضبابة غامضة معلقة على مفرق الجبل الشامخ وراءنا ، ووقع صوته العميق يرن صداه في كل جارحة في .

كانوا ثلاثة يقتعدون الحجارة في قلب « حاكورة » التين والزيتون . شيخ بعمامة . ربعة على شيء من النحول في عينيه يمتزج احتدام الثورة وفرح الاطفال. اما الاخران فكانا الشيخ محمد الحفني والشيخ علي الحاج عبيد .

« يبدو ان كلمة شيخ نوع من النداء تماما ككلمة رفيق وليست بالضرورة تعني رجل دين » .

وكان يدور بينهم الحوار التالي :

ـ يا شيخ محمد ارى ان بقاءنا في بلدتنا هذه لم يعد امرا مقبولا . البلاد تشتعل بنيران الثورة والفرنسيون يجندلون في كل يوم اخوتنا في شتى بقاع الوطن . لهذا ادعوكما للالتحاق بصفوف الثائرين منذ الساعة .

الشيخ علي : ولكن يا استاذ انت رجل دين معمم خريج الازهر والبلدة بحاجة اليك . دع مثل هذا الامر لنا . ولتشفع التحاقنا بالدعوات الصالحات وحض الناس على الجهاد .

القسام ينتفض غضبا : لقد تركت امر الدعوات الصالحات « للعجز من المشايخ » ان الدين ، كما افهمه

ليس ارتداء للبوس المشايخ وان يقبع المـرء خلف المحاريب متسلحا بلباس يقيه النوائب فيرجع كل مساء الـى عائلته خانعا قريرا ، يمارس حنانه الكاذب على اطفاله او ينام الى جانب زوجته بينما قوافل الشهداء تتلى على مذابح الحرية .

سألتحق قبلكم بالثورة ، وسأحتفظ بزيي هذا لأؤكد للخانعين من زملائي الذين اتخذوا الدين وسيلة للملاذ ، وملاذا يفيئون اليه فيعفيهم من تبعة الدفاع عن الوطن . ان الدين ثورة ، ان تكون مع المضطهدين والمظلومين . انه شهادة وفداء ، هكذا افهمه وسأحتفظ بجبتي وعمامتي احراجا لهم وكشفا لتخاذلهم .

الشيخ محمد : بارك الله فيك يا ابا محمد وانا معك منذ الساعة .

القسام : لقد عرفت من اخبار الثورة ، ان عصبة البيطار تسيطر الآن على الجبال المحيطة بقضاء قلعة صهيون فوق اللاذقية . والرجل صديق قديم ، وهو من خيرة قادة حركة الشيخ صالح العلي واعوانه . وأرى ان يكون التحاقنا بجماعته ، والجبال جبالنا ، نعرفها جيدا ونحن أقدر على خدمة الثورة فيها .

الشيخ علي : ومتى يكون ذلـك ؟

القسام : خير البر عاجله ، لتذهبـا الليلة الـى عيالكما لتوديعهم والاطمئنان عليهم . ويكون لقاؤنا غدا مـع الفجر في هذا المكان لننطلق فورا ، ولا تنسيا ان تحضرا معكمـا سلاحكما .

الشيخ محمد : انا والشيخ علي لدى كل منا « مرتينة » ـ بندقية ـ اما انت فهل ستحارب بكتبك وكراريسك ؟

القسام : لا عليك يا اخي ، لقد بعت شيئا من مصاغ ام محمد ، كان الله في عونها ، واشتريت به حاجتي مـن السلاح . لقد خططت لكل شيء بدقة قبل ان افاتحكم بالامر . ولم يبق غير التنفيذ . اذهبا الآن على بركات الله . موعدنا مع الفجر .

ثلاثة اشباح مع الفلس « يعربشون » على السفوح القريبة ، رعشة من برد تسوط جسدي وانا ارقبهم من بعيد . وقد ارتدى كل منهم « عباية زنارية » من النوع البسيط الذي ينسجه ويرتديه فلاحو تلك النواحي . وقد بدت « الجنادات » المليئة « بالفشك » الذي دفعوا ثمن كل طلقة منه من مصاغ نسائهم وقوت عيالهم . أما البنادق الثلاث . فكل واحدة من طراز وشكل .

ظللت اراقبهم من بعيد وضباب البكور يلفهم شيئا وراء شيء ، حتى غابوا عني . وظللت اتسقط اخبارهم من الجوار بضعة اشهر ، وكنت اعلم ان غابات الفرلق وكسب وقمم صلنفة وجرود صهيون تشهد كل يوم وليلة هجمة جديدة جريئة لجماعة القسام الصغيرة التي كونها من ابناء الشعب الذين انضموا اليه . هو لم يبرز في تلك الاثناء كقائد كبير ، ولم يلمع اسمه كغيره من الاسماء . الا انه اكتسب كثيرا من الخبرة في حرب العصابات ، اذا جاز التعبير في

العشرينات ، كما تميزت جماعته عن سواها بطابع خـاص ومميز ، فقد غلبت عليها سمة التواضع والصدق والبساطة. لقد حفلت الثورة السورية ــ اذا جاز التعبير ايضا ــ بالكثير من مظاهر الوجاهة والمباهاة وهــو الامر الذي كــان القسام يخشاه ويصر على الفائه . وعندما بدأت تصلني اخبار تراجع الثوار امام هجمات قوات المستعمر الشرسة وضخامتها . خشيت على صاحبي وقد انقطعت عني اخباره . فحملت بعضي وذهبت ابحث عنه . وقرب صلنفة ، في غابة عذراء تقع فيما بين القرية وبيت اقطاعي كبير . وجدته جالسا يتكيء الى جذع شجرة هرمة وشامخة . وقد نام قريبا منه صديقاه ، كان يتأمل جذوع الاشجار من حوله وقد نمت عليها الحشائش الصغيرة الملونة ، فبدت كأنها لوحة حقيقية يغمرها الصمت والحزن وموسيقى النسائم الباردة وهي تلهو بالاوراق الآخذة في التساقط . وعلى صوت الاوراق المتكسرة تحت قدمي تنبه الى قدومي فانتفض وقد أخذ « مرتينته » بيده . وما ان رآني حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة واهنة ورحب بي جالسا على غير عادته .

ــ اخيرا اتيت ، لقد جئت في الوقت المناسب ، اعني بالنسبة اليك كاتبا فأهلا بك يا بني .

ــ ولكنني اراك حزينا . خيرا ان شاء الله ؟

ــ يا بني الحزن شيء طبيعي بالنسبة للنفس الانسانية . الذي لا يعرف كيف يحزن لا يعرف كيف يفرح . وكل

هذا لا يعني انني فاقد الامل او ان الاحداث الاخيرة قد ثبطت ايماني بحتمية انتصار الحق والعدل . الا انني ، وبعد الاشهر الاخيرة ، ازددت قناعة ، بأننا يجب ان نعيد النظر بأساليبنا ومفاهيمنا السابقة .

ـ انها نغمة جديدة اسمعها منك ؟!

ـ انها ليست بجديدة . ولكنها ازدادت نضجا واختمرت بعد الاحداث الاخيرة .

ـ وما هي هذه الاحداث الاخيرة ؟

ـ لقد عشنا الشهور الماضية بدايات ثورة حقيقية . ولكن ثمة خللا كان يفت في كيانها منذ البداية .

ـ . . . .

ـ لقد كانت القيادات في غالبيتها ، من جبل الزاوية في الشمال حتى جبل العرب في الجنوب ، مرورا بسوريا الوسطى وانتهاء بجبالنا هذه . في يد ابناء العائلات الكبيرة ، انا لا انكر دورها الوطني في هذه المرحلة . ولكن ابناءها لا يفكرون بأبعد من اجلاء الاجنبي . ولكنهم ليسوا على استعداد للتضحية بمصالحهم المادية وموروثاتهم ، كما انهم على استعداد دائم لممارسة الاساليب الملتوية للوصول الى الجلاء ، الجزئي او الكلي . فمفاوضة المحتل شيء مقبول لديهم . واذا لان قليلا واعطاهم بعض الوعود او تخلى لهم عن بعض مواقعه ، تركوا سلاحهم وانحدروا الى قصورهم

في المدن والارياف . والاستثناء شيء نادر في مثل هذه الحالات ولا يشكل قاعدة يركن اليها . وربما انقلب بعضهم الى اعوان وازلام .

ــ والحل ؟

ــ الا تنطلق الثورة الا من الشعب لانه وقودها . وان تكون المباديء التي نثور على اساسها غاية في الوضوح ، تستلهم الله والوطن فتهدف الى رفع الحيف والظلم عن كاهل شعبنا . جاء هذا الظلم من الاستعمار او من الاقطاعي المتسلط . انا في الواقع لا صورة كاملة لدي حول هذه الامور ، الا ان احساسي بضرورة العدل والمساواة ورفع الحيف على غاية الوضوح وربما البساطة ايضا . لا لن اشترك في ثورة ان لم تكن لحمتها وسداها الحرص على مصلحة الناس جميعا دون تمييز .

ــ وهل انتهى كل شيء الآن ؟

ــ لا . لم ينته شيء بعد ، فنحن ما زلنا في البداية ، والشوط الاول طويل طويل .

ــ ارى اثر جرح لم يندمل بعد في وجهك ؟

ــ ليت كل الجراح كهذا الظاهر للعيان يا بني . ان اخطر الجراح تلك التي تحفرها الخيبة والمرارة ههنا ــ مشيرا الى موضع القلب في صدره ــ في الاعماق . لقد كانت الشهور الماضية مؤشرا حقيقيا على طريق القضية . ولكن الوجاهات و « العراضات » والمظاهر قتلت كل

شيء . سحقا لهم اولئك القادة المجوفون .

ـ وماذا ستعمل الآن . هل انتهت قصتنا هنا . انها لا تفي بالغرض . وقصة قصيرة تستوعبها .

ـ كل يغني على ليلاه ... لا تخف يا بني ، لا تخف ، ألم اقل لك اننا ما زلنا في بداية الطريق .

ـ بداية الطريق ؟ . واين ستفضي بنا طرقك يا شيخ . انني بالواقع في متاهة لا اعرف من اين ابدأ ولا أين انتهي . وكيف ستكون وجهتنا الآن ؟ .

ـ الى فلسطين يا بني .

ـ فلسطين ؟ ولم لا تبقى هنا في بلدك .

ـ وهل فلسطين ليست بلدي . ثم لا تنس انني محكوم بالاعدام . لقد ارسلت السلطة تفاوضني على التسليم مقابل تعييني قاضيا في اللاذقية ، واصدار العفو عني . شرط ان استقيم واحسن خدمة الاجنبي . فرفضت ذلك بلا ريب . ولم يبق امامي الا الرحيل وقد حطت الثورة اوزارها في هذه الديار .

ـ وماذا سيكون عملك هناك ؟ .

ـ الثورة طبعا .

ـ وهل الثورة عمل ومهنة ؟

ـ بشكل او بآخر ، اجل . ولن يكون لي من عمل بعد اليوم سوى الثورة على الظلم والاحتلال في كل مكان . وفي اللحظة التي تنتصر في مكان ، فانني سأغادره الى سواه ولو في اقاصي الارض ، لقد امست الثورة على

الظلم حياتي وهاجس ايامي الاخيرة . ولـن استطيع فكاكا من اسرها ، ولكنني هذه المرة سأعرف مواطيء قدمي بشكل جيد . لن ألوثها بمصافحة أكف الباحثين عن الوجاهات على حساب مصالح الناس ، بكلمـة مختصرة يا بني ، اصبح لدي ايمان راسخ بأن الثورة لا يمكن لها ان تقوم الا من اوساط الشعب .

ـ واين ستستقر في فلسطين ؟ وهل تبدأ الثـورة منـذ وصولك ؟

ـ هذه المرة لا . فهي لكي تنجح يجب ان يسبقها اعـداد طويل . لقد كتب الي صديق قديم هو الشيخ كـامل القصاب . ينبئني عن مجال للعمل في حيفا ، وقد وعدته بالمجيء في اقرب فرصة وانا الآن اخطط للهرب متخفيا من وجه الافرنسيين .

ـ حيفـا ؟

ـ اجل . وارجو ان نلتقي هناك من جديد . فأنا ما زلت عند وعدي . وسيكون لك قصة غريبة وفيها كبير نفع وعبرة لكل الثائرين في مقبلات الايام ، فالى اللقاء .

وتركته في الغابة الصغيرة العذراء الغافية ما بين صلنفة وبيت ذلك الاقطاعي الكبير . تاركا لجذعه أن يلقي بكل اعبائه وتعبه على جذع تلك الشجرة اللوحة ، حتى تحس وكأن وحدة ما تشد كلا منهما للاخر . تفحصته مليـا قبـل ان اغادره :

ـ أرى ان جناداتك شبه خالية من « الفشك » ؟

ـ اواه يا بني لم يبق في ايدينا ما نشتري به غذاء لبنادقنا.
واصبح الحصول على رصاصة من احد تجار الذخيرة والسلاح أشق من طلوع الانفاس .
ولولا بعض ما غنمناه من مخافر العدو لتوقفنا منذ زمن بعيد ولما استطعنا الاستمرار حتى هذه الايام .
واذ تطلعت الى ساقيه الممدودتين على الارض المغطاة بالاوراق الجافة اكتشفت ان « مداسه » ـ نوع من البوط يصنعه الفلاحون بأيديهم ويجعلون نعله من الكاوتشوك او الغومة كما يسمونها ـ قد تمزق نعله واهترأ وظهرت اصابع قدميه منه .

لم اجد ضرورة لسؤاله عن الامر . لقد كانت ابتسامته الحزينة ، المشبعة بالاصرار والتصميم والفرح الطفولي مع ذلك ، كافية لتطلعني على سوء الحالة المادية التي يعاني منها وصحبه فودعته مبتسما . وسرت لا يشغل سمعي سوى تكسر الاوراق الجافة تحت قدمي ، وهمس النياسم المثلجة وهي تتلاعب بالاوراق الآخذة بالتساقط ، في ذلك المساء الخريفي الحزين .

الفصل الثاني

اللقـاء فـي اليـاجـور

على مشارف قريـة « الياجور » في ضواحي حيفا ، التقينا من جديد كانت جبته نظيفة وتبدو عليه مظاهر قرارة العيش غير الباذخ .

ـ أرى ان احوالك جيدة هنا . فهل طاب لـك العيش ، فنسيت هاجس ايامك ؟

يبتسم ابتسامة الرضى المفعمة بالحزن والفرح الطفولي معـا .

ـ لا يا بني ، انما طبيعة العمل التي امارس تقتضي منـي بعض المظاهر دون مبالغة فيها ، والا انتهى بي الامر الى ان اكون احد رجال الاقطاع الديني .

ـ لماذا اخترت هذه الضاحية الفقيرة الرثة لسكناك ، مع انك مدرس في المدرسة الاسلامية بحيفا ، وظروفـك المادية تسمح لك بسكنى المدينة ؟

ـ اجل انني ادرس في المدرسة اياها ، ولقد وصلت حيفا

في الخامس من شباط العام ١٩٢٢ . وكان عملي هذا هو الذي حدثتك عنه سابقا . بل انني تسلمت بعد اربع سنوات رئاسة جمعية الشبان المسلمين ، وهي منبثقة عن مؤتمر الشباب المسلمين العرب الذي انعقد عام ١٩٢٧ في حيفا . وهي جمعية ذات اهداف قومية وانسانية احاول جاهدا ان اكرسها لخدمة القضية . رغم ان اسمها يوحي بهدف ديني بحت . وهذا يساعدني اكثر فأكثر في مهمتي .

ـ وماذا تعمل ايضا ؟!

ـ خطيب في جامع الاستقلال بحيفا كما انني عينت مأذونا شرعيا .

ـ كثير الصنعات قليل البارات ؟

ـ اجل . اجل . وكل ما يأتيني من هذه الوظائف المتعددة ، انفقه بالمشاركة مع جيراني الفقراء . او اوظفه لخدمة القضية .

ـ القضية . القضية . ارى انك تستثني تعبير الثورة .

ـ وهل يستثنى المرء قدره ؟

ـ ولكن .

وتبدو عليه ملامح الغضب ، ترتسم على وجهه الذي لا تستطيع تخمين عمر محدد له :

ـ بلا لكن . بلا « بطيخ » . لن اقع هذه المرة في براثن الثوار المزيفين ولن تكون الثورة مطية لاحد . يبني على حسابها امجاده الشخصية ووجاهات جديدة لعائلته التي كل حياتها للوجاهات .

ــ المفروض اننا على ابواب العام ١٩٣٥ . هذا يعني انك هنا منذ اكثر من عشر سنوات . فماذا فعلت حتى الآن ؟

ــ انني اهيء للثورة الحقيقية .

ــ وهل التهيؤ للثورة بحاجة لاثني عشر عاما .

ــ اوف . ماذا اقول لكم معشر الشباب . ويحتاج الى اكثر بكثير . وكل ما اخشاه ان تداهمني الاحداث قبل ان يتم كل شيء . وعندها سيكون علي وصحبي ان نقدم على خطوة متهورة .

ــ انت ورفاقك ؟ وهل هم كثر ؟

ــ تجاوزوا بضعة مئات كأصدقاء وانصار . وهم في حدود المئة كأعضاء حقيقيين في حلقات « الجهادية » . هذه معلومات لم ابح بها الا لأقرب المقربين ، ويهمني ان اطلعك عليها ، لانه يهمني ان اميط اللثام عن الكثير من الدعاوى التي انتشرت بعد معركة (يعبد) .

قرية الياجور هذه التي تراها مجرد « خرابيش » خصاص من التنك والاخشاب اقامها الفلاحون الذين يفدون للعمل في حيفا بعد ان استلبت منهم اراضيهم التي باعها ملاكها الكبار في سوريا ولبنان وفلسطين . فأصبحوا اجراء وعمالا مياومين وفي هذا المجتمع العجيب تنضج اروع الافكار الثورية انها حسب تعابير ايامكم انتم خير بؤرة ثورية يمكن الاستفادة منها ، لخلق الثورة الحقيقية .

ــ وما هي ابرز جوانب حياة هؤلاء العمال الفقراء الذين

تهيئهم لما تقول .

ـ انهم يعانون كل انواع الفاقة والفقر المدقع يعيشون في شبه بطالة دائمة .

ـ والعمال الصهاينة ؟

ـ انهم يتمتعون بكافة الضمانات والتأمين وحرية التنظيم النقابي . وحتى التأمين ضد البطالة . والعامل العربي يجد نفسه صبح مساء في مواجهة هذه المقارنة ـ التحدي .

ـ ما هي قصة حلقات الجهادية ومتى بدأت بها اذن ؟

ـ بدأت عمليا بها العام ١٩٢٥ وهي نوع من النظام السري المتين العرى . تقوم على نوع من التنظيم الهرمي . بحيث لا يعرف الواحد من الاعضاء سوى رفاقه في حلقته التي لا تتجاوز الخمسة . وهو يعرفهم بأسمائهم المستعارة في الغالب . الشيخ كذا وابو كذا . وكل حلقة يراسها نقيب في القيادة والتوجيه يكون على اتصال مباشر بالقيادة .

ـ وما هي شروط الانتساب اليها ؟

ـ انها شروط قاسية جدا . ولكن اهمها ان يكون المنتسب مستعدا للموت في سبيل القضية . في سبيل ايقاف سيل الهجرة الصهيونية وطرد الانكليز والمحافظة على وحدة التراب الفلسطيني ، باديء ذي بدء ، وان يقتني سلاحه من حسابه الخاص اذا لم نيسره له وان يبصم على ذلك بأصابعه العشرة . ويكتب وصيته ساعة قبول

انتسابه كعضو فعال . اما التفصيلات فكثيرة ولا أرى من ضرورة للدخول فيها .

ـ وما هو نوع تلك الحلقات . وهل كلها قتالية ؟

ـ لا . هناك خمسة انواع من التنظيم او خمس وحدات اذا شئت .

١ ـ وحدة مختصة بشراء الاسلحة ومنهما الشيخ حسن الباير من قرية برقين والشيخ نمر السعدي من غابة شفا عمرو .

٢ ـ وحدة خاصة بالتدريب ويقوم عليها ضابط سابق خدم في الجيش العثماني .

٣ ـ وحدة مختصة بالمعلومات وتقصي اخبار الصهاينة والانكليز ومعرفة خططهم السرية . ويرأسها الشيخ ناجي ابو زيد ويغلغل اعضاء هذه الوحدة في جهاز البوليس او يعملون مع الصهاينة في المستعمرات التي يقيمونها على ارضنا بمساعدة الانكليز . وفي شتى مؤسساتهم .

٤ ـ اما الوحدة الرابعة فتتولى شؤون الدعوة الى الثورة والتهيئة لها واشرف عليها شخصيا .

٥ ـ والخامسة مهمتها الاتصالات السياسية ومنها الشيخ كامل القصاب والشيخ محمود سالم المخزومي .

ـ الشيخ القصاب والشيخ امين الحسيني اسمان تدور حولهما بعض التساؤلات وكل منهما يدعي ابوتك

وانتماءك اليه فيما بعد فما هو رأيك ؟

ـ الذين ادعوا ابوتي او نسبوني الى احزابهم وجمعياتهم بعد رحيلي كثيرون . هذا الامر لا استطيع الجزم به في الواقع الا انني اقول لك انني لـم انتسب رسميا لغير الجهادية التي اسستها مع بعض الرفاق والتي عرفت باسمي فيما بعد . وانما كنت احاول ان اكون على علاقات طيبة ومتفاوتة قربا وبعدا مع الجميع لاستطيع التحرك بحرية والاستفادة من كافة الظروف المحيطة .

ـ وما هي شروط التأهيل للعضوية ؟

ـ لا شروط اطلاقا . العضوية عندنـا مسؤولية وعبء وخبرة . الا انني ضمنيا لا اقبل في مركز قيادي الا من كان من ابناء الفقراء ، مؤمنا بالشعب والقضية ايمانا قويا . لانهم اصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة وهم الاكثر استعدادا للفداء .

ـ هل لك بمثل استنير به ؟

ـ خذ مثلا العبد قاسم ومحمود زعرورة انهما في القيادة العليا . وكلاهما يبيع الكاز في ازقة المدينة .
محمد صالح الملقب بأبو محمود لديه طنبر هـو الاخر « كاره » يلف به طول النهار وفي كافة الطرق الشاقة يعتل ويسترزق وهو الآن يقوم بالاتصالات وينظم وينفذ خلال ذلك .

اما الشيخ خليل محمد عيسى الملقب (بأبو ابراهيم) الكبير . فهو صاحب دكان صغير لبيع الخيش . من

اصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة وهم الاكثر استعدادا للفداء .

هذه النماذج تستطيع ان تأخذ فكرة عن القادة في الجهادية .

اسمع من بعيد جرس محمود زعرورة وصوته الاجش يصيح على الكاز . اذهب وراقبه عن كثب . فتأخذ فكرة اكثر واقعية .

ـ « كاز .. كاز .. كاز مش مفشوش . مية ارض بلادنا اللي بيبيعونا ياها . اللي بتضوي على الفقرا شروا حكايتنا ... كاز .. كاز »

وجهه خشن التقاطيع ينضح قساوة وطيبة . عيناه كعيني عقاب حادتين ، ما تهدآن في وقبيهما . ينادي على « الكاز » بينما يتلفت يمينا ويسارا . يسوق « كديشة » العجوز . فاذا ما لمح « بوليسا » انكليزيا ازدادت حدة نداءاته حماسة واكثر من قرع جرسه اليدوي . يقترب منه بعض الشغيلة العائدين من الحقول تلك العشية وعلى كتف كل منهم شتى انواع « العدة » معاول . رفوش . فؤووس .

احدهم : « ايش يا ابو محمد . كيف الغلة ان شاء الله محرزة هاليوم » ؟

ـ « منين بدها تكون محرزة . بالمدينة بيضووا كهربا وهون الفقرا قروشهم ما بتحرز . كيف ان شاء الله ما عمبعذبوكم هالولاد الكلب » ؟.

اخر : « اجرتنا نص اجرة ومناخدها بعد طلوع الروح خواجا بيحدفنا لعند خواجا . وان فتحنا تمنا بيجي

البوليس الانكليزي بيآجر فينا » .

ـ « البركة بالزعامات تاعتكم . كل يوم بيصرحوا وبيتظاهروا وبيحتجوا . والمستعمرات بتكتر وارضكم بتطير من بين ايديكم كنتوا مملوكين لاصحاب الاراضي الفنايا العاملين زعما على كتافكم ابا عن جد . وباعوكم للصهاينة » .

واحد ثالث : « ورح يضلهم تصاريح واحتجاجات وطق حنك لتقوم الساعة . والله الجهاد فيهم أولى وارحم » .

يلمح دورية بوليس انكليزي :

ـ الارض انسكنت يا جماعة . الاجتماع بجامع الاستقلال بعد صلاة العشاء ... يتابع :

« حاه ... دي ولك . والله بتقول ابوك انكليزي وامك صهيونية .. حاه ... كاز ... كاز .. » .

يتضاحك العمال ، وينصرفون كل في طريقه ...

في المساء القسام يوسع الخطى باتجاه حيفا .

ــ الى اين . اراك على عجلة من امرك ؟

ــ اجل يا بني اجل ، لا تطل الحديث سنلتقي فيما بعد .

ــ الديك اجتماع ما ؟

ــ اجل في مسجد الاستقلال اتبعني اذا اردت ان ترى الامور عن كثب .

ــ يبدو ان الاجتماع مهم .

ــ الحقيقة ان كل الاجتماعات مهمة الا ان اجتماع اليوم له أهمية خاصة .

ــ ولم ؟

ــ ان رجال الدين الآخرين ، الذين تعرفهم . ومن ورائهم الاصابع التي تحركهم يقيمون الدنيا ويقعدونها علي لانني على حد زعمهم لا افرق بين المتدينين وغير المتدينين ، لقد حاكوا شتى المؤامرات ضدي الا ان نظافة سلوكي وثقة الناس الفقراء الذين اتعامل معهم بي . كانت الصخرة التي تحطمت عليها كل تلك المؤامرات . انهم يحسون بالخطر ولهذا فهم يستشرون في محاربتي،

لقد بدأت اضع اصبعي في موضع الجرح وقد وصلت اخيرا الى منافعهم الكثيرة وهم اليوم ، كما جاءتني معلومات اكيدة ، ينوون ارسال احد كبار مشايخهم الى الاجتماع الليلي لاحراجي . وسأكون لهم بالمرصاد .
الى اللقاء . يا بني .
يمضي باتجاه مسجد الاستقلال .

بعد الصلاة ينتحي القسام جانبا يتحلق حوله جمع من التصريحات والاحتجاجات بينما ارصدتهم في البنوك الاجتماع . وكان الحديث محتدما وعينا الشيخ ناريتا النظرات هذه الليلة .

القسام : لم يبق امامنا الكثير يا ابنائي . المؤمن الحق هو من آمن بوطنه وعمل على خلاصه ، ولطالما كان الجهاد اول وافضل واجبات الانسان. المستعمرات تتكاثر كالحشرات السامة ، والانكليز فقدوا كل مقومات الحياء في دعمهم للصهاينة . وجماعتنا ، اقصد وجوه الحركة التي يسمونها وطنية وفي مقدمتهم رجال الدين المعروفين ، لا يفعلون اكثر من التصريحات والاحتجاجات بينما ارصدتهم في البنوك الاجنبية تزداد تضخما . لربما كان الحق في ايديهم . فهم يفكرون بمستقبلهم الشخصي . وغدا حين تتحول فلسطين الى دولة صهيونية ويتشرد شعبنا كل مشرد سينتقلون الى بلاد اخرى . لبنان مثلا ، وستكون « الفلل » الفخمة بانتظارهم والسيارات الفارهة . والرفاه الخسيس . والقضية برمتها لا تكلفهم اكثر من محاولة الضحك على ذقون

السذج من النــاس « بشويــة » تصريحات و « كمشــة » احتجاجات . لم يبق امامنــا ســوى القتــال ، وان نهدم مستعمراتهم على رؤوسهم قبل ان ينمو بناؤها على تراب ارضنا المسروقة .

رجل كهل : «ولكن يا شيخي ما هما باعوهم ياها بيع».

القسام : الارض كــانت مسروقة قبــل ان يأتــوا . الاقطاعيون سرقوها من الفقراء عن طريق خدمتهم المستعمر العثماني او باستغلال جهد العاملين فيها ولهذا فهي رخيصة عليهم فحين جاءهم السعر المناسب باعوها . الارض لكم انتم ابا عن جد . وانتم وحدكم من سيحافظ عليها ويبذل الدماء في سبيل استعادتها .

يقترب منه واحد كان يقف بجانب الباب يراقب مداخل المسجد يهمس في اذنه :

ــ جاء الشيخ صالح الحوراني ومعه بعض « زلمه » .

القسام : ارسله « معلمه » القابع في القدس اننا على استعداد لاستقبالهم متى يشاؤون..

(يدخل الشيخ الحوراني بمظهر احتفالي ويلقي التحية. يبالغ في تقعرها وقلقلة حروفها وتطويلها) .

ــ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يجيبه القسام باللهجة ذاتهــا وبشيء مــن السخرية والمرارة :

ــ وعليكم الســلام ورحمــة الله وبركاته اهلا بالشيــخ الحوراني . تفضل . تفضل .

لا يبدو على الآخرين كثير ترحيب به بينما يتجاهله بعضهم باشمئزاز ونفور واضحين .

الحوراني : سمعنا انكم يا اخي تقيمون دروسا قيمة كل مساء بعد صلاة العشاء فأتينا نستنير بحسن ارشاداتكم ولعمري انها لسنة مباركة سار عليها الاولون وانتم خير خلف لخير سلف .

القسام : ونحاول جاهدين ان تكون كهؤلاء الاخيار من السلف الصالح .

الحوراني : وما هو موضوع درس الليلة « غامزا » هل هو في اصول الوضوء ام ماذا ؟

القسام : ليس هناك من مسلم في طول الارض وعرضها لا يعرف كيف يتوضأ وانتم منذ مئات السنين تنفرون الناس من حقيقة الدين بحديث الوضوء وتفصيلاته . المقصود اساسا هو النظافة وكفى . توضأ كيف تشاء وصل كيف تشاء المهم ان تكون صافي النية وان يكون عملك طيبا بالنسبة لشعبك ولوطنك . لا يا استاذ درس الليلة لم يكن في اصول الوضوء انه في مشكلة الاوضاع الراهنة ، بناء المستعمرات وتهجير الشعب وتآمر الانكليز وكيفية معالجة الوضع من كافة نواحيه . فان كنت اتيت وانت تحلم بدرس في الوضوء فقد طاشت رميتك .

(الحوراني يتلفت الى من معه بهلع لكأنه يؤكد لهم ما سبق ان تحدثوا به) ثم يلتفت اليه مذعورا يبحث عن الكلمات فلا تسعفه .

لكن يا اخي، يا استاذ انت رجل دين وقور وعالم مشهود لك . وخريج الازهر الشريف . خلك في امور الدين ودع السياسة وشؤونها لاربابها وابتعد عن « وجعة هالرأس » .

القسام : اصحابك في القدس لا يفعلون بما تقول ، انهم يعملون في السياسة ولكن بأسلوب مختلف لا يخيف الصهاينة او الانكليز ، المقصود ليس تركي السياسة وانما تركي للعمل السياسي الحقيقي المخلص غير المتآمر والمشترى سلفا . كفانا تهريجا ودجلا . ومتى كانت السياسة شيئا مفصولا عن الدين والدنيا انتم انما تحاولون وعن عمد ان تدخلوا في رؤوس الناس ان السياسة شيء مخيف تلهونهم بالغيبيات تريدون لهم ان يسلموا زمام الامور للسماسرة والتجار لتنتهي الامور الى ما انتهت اليه هذه الايام والى اسوأ فأسوأ .

ـ اتق الله يا اخي انك تنزلق الى المزالق الخطيرة . فالله سبحانه جل جلاله ..

(يقاطعه القسام)

ـ يكفيكم احتماء باسمه . انه جل جلاله لا يرضيه كل ما تأتون . اموال الاوقاف والجمعيات الخيرية وما تنفقونه من مخصصات لبناء مزيد من الجوامع لسنا في حاجة اليها حاليا وزخرفة القديم منها كله حرام في حرام . بينما المجاهدون لا يجدون ثمن ذخيرة لبنادقهم الفارغة وقوت يومهم .

ـ وهل تعتقد ان بناء بيوت الله وتزيينها حرام . اخشى ان

تكفر يا رجل .
(يزجره القسام بقسوة هذه المرة)

ــ ومن اعطاكم مفاتيح الجنة وكلمة الله لتتحدثوا باسمه فتكفروا هذا وتبعثوا بذاك الى النعيم . انا اعرف منكم بشؤون الكفر والايمان . انا لا اعترض على بناء بيوت الله في حالة السلام والبحبوحة اما ان تكون في حرب مع الاعداء ومغتصبي الوطن وان تكون الرعية جائعة وتصرف الاموال جزافا فهذا هو الحرام بعينه وانني ، ولتشهدوا على ما اقول ايها الجمع الكريم ، احلل قتل منفقها وهدر دمه .

يتابع متوجها الى الحوراني وجماعته :

ــ أتدرون كم انفقتم على بناء فندق الاوقاف في القدس وما اعتقد ان الفنادق بيوت لله وانما هي بيوت للتجارة وجني المال الحرام . وكذلك على تزيين المساجد هنا وهناك بما فيها المسجد الاقصى ؟ لقد انفقتم مئات الآلاف من الجنيهات الاسترلينية وكانت نفقاتكم تلك تكفي على الاقل لتسليح خمسة آلاف مجاهد . اجل خمسة آلاف مجاهد يمكنهم مقارعة الانكليز وتهديم المستعمرات على رؤوس اصحابها وغدا حين يحتلون البقية الباقية لن تنفعكم مساجدكم المحتلة بكل زخارفها التي كلفت شعبنا باهظا . اذهب انت واؤلئك الذين ينامون على حرير غبائهم او تغابيهم في القدس حيث شئتم اما انا فانني ههنا مع اخوتي ، وبهم وحدهم سأحرر النفوس قبل الاوطان وبهم

سأدخل الجنة كما افهم شخصيا دخول الجنة . ومن غير مطرود يا شيخ حوراني ارجو ان تضع حدا لكـل هذا الهذر فاننا نضيع وقتنا معك دون اية جدوى. فان احببتم ان تسمعوا حديث السياسة كما تسمي الذي نحن فيه فحبا وكرامة والا فاذهب الى من ارسلوك وبلطوا البحر .

يقوم الحوراني غاضبا مضطربا يلملم اذيال جبته :

ـ ارى انك يا شيخ عز الدين قد تجاوزت كل حد وسيكون لنا معك احاديث أخر في المستقبل القريب . سأنزل من صباح الغـد الـى القدس وسأقابل المجلس الاسلامـي الاعلى و . . .

القسام : لا تكمل اعرف بقية الاسماء الفضفاضة الرنانة التي ستسردها على مسامعنا اذهب واخف بها سوانا وعندما تنتهون من اجتماعاتكم ومقرراتكم الخطيرة التي لن تنتهي عد الينا بالويل والثبور . عجل ورافقتك السلامة .

يودعه بابتسامة ساخرة بينما يمضي ومن جاؤوا معه دون ان يخرج احد في وداعهم .

غبش الصباح الباكر يلف الوجود . بساتين الليمـون تبدو مفعمة بخضرة مستحيلة . والدخان يتصاعد هنا وهناك فوق تربة الياجوز . كنت جالسا على مرتفع صغير يطل على الضاحية الصغيرة . وقد تركت لجذعي حرية الاستسلام الى جذع زيتونة هرمة وحيفا تبدو عن بعد كحسناء في روعة بهائها ورونقها تدل بحسنها على ما حولها وهي لا تدري انها وشيكا ما تصبح مسبية حسناء تلهو بفدائرها اصابع الغزاة .

ظل امرأة تتشح السواد ، تروح وتغدو بين بيت الشيخ وبيت مجاور له . فجأة احس بوقع خطى قريبة مني . التفت فاذا الشيخ بعمته البيضاء وجبته المغبرة يبتسم الي ابتسامته الاسطورية .

ـ عم صباحا يا بني اراك تكثر من مراقبتي ، حتى لكأنك واحد من عسس العدو اكل كتاب القصة هكذا يفعلون ام انك لم تنم ليلتك هذه ؟

ـ اما النوم فقد استغرقت فيه طويلا اذ لم يكن لدي ما افعله مساء . فنمت باكرا . واما المراقبة فاقرك عليها . ان صباحاتكم هنا لتغري المرء بالاستيقاظ المبكر . لست ادري . احسني اودع هذه البلاد لكأنني مفارقها قريبا الى غير رجعة .

ـ دعك من هذه الاوهام الشاعرية . الديار التي يعيش فيها شعب كشعبنا لا يكون وداعها نهائيا اذا قدر علينا ان نودعها . يبدو ان صباحاتنا توحي لك بأوهام كثيرة بعضها حزين اكثر مما يجب .

ـ وهل الظل المتشح بالسواد الذي يروح ويغدو من بيتك واليه احد تلك الاوهام ؟...

يقرقر بضحكة جافة الجرس . الا انها حقيقية لكأنه لم يعتد الضحك اطلاقا .

ـ اراك تضحك تماما كما يضحك الآخرون وكنت احسبك لا تتقن اكثر من الابتسامة .

ـ لا يا بني انني حين اخلو لنفسي وللمقربين الي اضحك

ملء القلب . لو رأيتني اجلس الى فقراء الفلاحين في قرى الشمال هذه اشاركهم زادهم البسيط لسمعت ضحكتي تجلجل في تلك البراري والجرود . وشاهدتني اعبث واياهم كطفل غرير فالذي لا يعرف كيف يضحك لا يعرف كيف يبكي ساعة لزوم البكاء ، لا يعرف كيف يعطي من ذاته وقلبه لشعبه ووطنه .

ـ وهل ستحدثني بفلسفة الضحك بدل حديث الظل المتشح بالسواد ؟

ـ يا لي منك في مشوارنا الطويل هذا ، فأنت اذا ما تعلقت بزاوية لا تتخلى عنها قبل ان تشبع فضولك منها .

يسرح بعيدا . ترتسم على ملامحه حسرة كاوية خفية يتابع :

انها زوجة احد رفاقنا الذين استشهدوا ولها منه عدة اطفال اخذت اقاسمهم ما احصل واعيلهم . حاولت وبعض المشايخ من رفاقه ان نقنعها بالزواج فرفضت . فهي تريد ان تربي صغارها . وكي لا تخدم في بيوت الآخرين تكفلت بمصروفهم البسيط طالما انا قادر على ذلك . وهكذا انقطعت الى تأمين حاجاتي . فأنا اعيش وحيدا كما تعلم . وكي ابعد عنها ألسنة السوء ، ولانني اعرف جيدا مدى رغبة اخصامي الذين يدعون صداقتي ، وقد رأيت واحدا منهم امس ، في ان يجدوا منفذا لهم يطالون به من سمعتي . عقدت قراني عليها امام الله والناس . ولكنها في الحقيقة اخت لي وعهد الله ما بيني وبينها وهذا يعرفه كل الرفاق والجوار .

ـ وهل هي جميلة ؟
ـ اكثر مما تتصور . الا ترى قوامها المعدول من بعيد . مـا أظن ذلك يفوت عينك التي كعين الحدأة .
ـ لماذا اذن تعذبها وربما تعذب نفسك بحرمان لا معنى لـه وهل تعتقد ان ممارسة الحياة الطبيعية في المأكل والمشرب والجنس شيء معيب ؟.
ـ بالعكس ، انا انسان منطقي مع نفسي . واعرف الطبيعة الانسانية على حقيقتها ، وادعو الآخرين الى اشباعها دون افراط ولا تفريط .
ـ اذن ؟.
ـ بالنسبة لمن يتنطح للقيادة يجب ان يأخذ نفسه وجسده بالشدة ، العفة والتعفف اساس . القادة غير الرعية رغم انهم منها واليها . قادتنا الاوائل لم يلتفتوا الـى متـاع الدنيا . كانت القضية همهم وهاجسهم . قادة هذه الايام باعوا انفسهم لملذاتهم ولهذا ضاعوا وضيعوا من تبعهم .
ـ غريب ، هل على القائد ان يكون بلا عاطفة وهل القيـادة ضد الحب ؟
ـ الحب ؟ ، ويسرح بعيدا ، هو شيء آخر يا بني . والله لو حملت تلك الجبال مـا احمله من الحب لناءت بحمله . ان قلبي هذا الذي بين جنبي لقلب طفل كبير ، ولكن لماذا تجرني الى هذه المطارحات في الحديث والتي مـا تعودت ان ابوح بها لاحد . انني أذوب لوعة وعشقا لكل افانين الجمالات . للفراشة العـابرة هـذه والوان جناحيها .

لخضرة البيارات ووجوه الاطفال للمراة الجميلة والحيوان الاليف ولكنني اكبح جماح النفس واغضي حياء كي لا افضح ضعفي الانساني امام الآخرين .

ـ ان كانت القيادة كذلك . فأرجو ان لا اصبح قائدا في يوم من الايام .

ـ ولن تصبح كذلك . انت فنان وعلى الفنان ان يعيش كل نأمة في وجوده حتى الامتلاء .

مرض قادتنا هذه الايام احد اثنين : المراة والمال ، فمن لا يطوعه الاستعمار بماله سلط عليه النساء . والقائد الذي يسلح نفسه ضد هذين الامرين لن تصل اليه اصابع الاستعمار . يتنهد ، ولكن ....

ـ وام محمد في جبلة البعيدة ما هو حالها اذن ؟

(يطيل الصمت والشرود . يتحدث كمن يحكي نفسه) :

ـ مسكينة هذه المراة الفاضلة ، لقد بعثت اليها اكثر من مرة اعرض عليها فكاك اسرها ولكنها رفضت رفضا باتا واصرت على ان تبقى في حرمتي . مسكينة كل امراة تقبل الاقتران بثائر . انها تحكم على نفسها ان تعيش معظم ايامها على الحرمان .

ـ وهل ما زلت غير قادر على الذهاب الى هناك ؟

ـ وهل يستطيع الذهاب الى بلده من ينتظره حكم بالاعدام فيه ، اواه يا بني انت لا تعرف ما معنى ان تعيش قاب قوسين او ادنى من بلدك دون ان يكون لك الحق في دخوله . اعرف ان هذه البلاد بلادي ايضا . واعرف ان

الناس الطيبين حيث وجدوا هم اهلي . ولكن قريتك ، بيتك ، زوجتك واطفالك ترابات ضيعتك ، حجارتها مسالكها زرائبها كل شيء ، كل شيء فيها موضوع آخر .

يصفن قليلا ويبتسم ابتسامة عريضة .

ـ ما خطبك ؟

ـ تصور منذ ايام وصلتني رسالة منها تعاتبني وتتهمني بشيء من المداراة بالخيانة . يبدو ان احد الرفاق الذي نقل اليها آخر اخباري وبعض ما توفر لدي من مال ، قد حدثها بحديث جارتي فاطمة هذه فشكت بالامر ، وبدأت تنهشها الغيرة فكتبت اليها تفصيلا موضحا لحقيقة الامر فما كان منها الا ان ارسلت لها « قبعة وطرحة » هدية لتؤكد لها رضاها . وتشكرها على ما تؤديه لي من خدمات . نساء بلادنا ما زلن يعشن اسيرات لرجالهن . انا غير قانع بكل هذا ولكن تغييره يحتاج الى وقت .

ـ هل تحبها ؟

ـ اجل . . . ولكن الحب معناه معاناة وصمت وتأمل .

ـ هل انت صوفي ؟

ـ ليت لي ان ارتفع الى مرتبة التصوف ولكنني اعترف بجريرة العشق . فأنا عاشق ابدي في كل شيء ، وفي كل لحظة ، وكل نأمة من وجودي . علاقتي بشعبي ، علاقة عشق ، الاطفال ، فراشات الحقول والازاهير البرية . اشجار الليمون ، الغروب الشاحب ، الفجر المؤتلق . . .

اعشقها جميعا بتبتل وصفاء وحبور وكذلك فاطمة التي لم يقدر لي حتى ان اعترف لها بما يختلج في حناياي . ما اشق ان تصبح مثلا اعلى للآخرين ، والاصعب من ذلـك ان تحافظ لهم على الصورة ، وان تستمر في العطاء والبذل والتوهج . اجل يا صديقي لقد احببت فاطمة تماما كمـا احببت القضية حتى لاصبحتا شيئا واحدا . ولكن علاقتي بها لم تتجاوز علاقة الجار بالجار والاخ بالاخت .

ـ وهل هي تقرك على ذلك ؟

ـ هي احست دائما بما اعاني وبما أصر على عدم البوح به ، فانضمت الى صفوفنا وكانت اول امرأة في التنظيم وبعدها انضم بضع نساء اخريات . ولكنهن جميعا مـا يزلن صديقات وارجو ان يمنحني الزمن الفرصة لتطوير فكرهن فيصبحن عضوات عاملات وبذلك نكون قد خطونا خطوة واسعة على طريق الحضارة والثورة .

يلوح طيف فاطمة مـن بعيد يبتسـم ابتسامة مريرة ويتنهد بعمق معقبا .

ـ لتكن اللذات القريبة ملك سواي فانها ما اغوت قائدا على مدى التاريخ الا وانهته ومعه الهدف الذي يعمل من اجله . لنحول من عواطفنا الشخصية ورغباتنا الى عواطف عامة وامنيات للآخرين اذا اردنا أن نكون على قد العبء الذي نهدنا لـه .

طلقة صياد تدوي قريبا منا وطائر ملون الجناح يهوي ويخفق قليلا ويرتمي غير بعيد عنا يتخبط بدمه . يرتعش

الشيخ ويشحب لونه :

ـ ما بالك ، أثائر وتضطرب لمرأى طير ذبيح ؟

ـ القتل . القتل . القتل . هذه كانت غاية غالبية البشر منذ بدء الخليقة لشد ما اكره ذلك . لقد صدقت يا بني . اجل اني اضطرب لذلك وللثائر الحق ان يضطرب لمرأى الدمعة في عين طفل والزهرة البرية المسحوقة تحت قدم همجية والطائر الذي يقتل غالبا بالمجان وارواء لرغبة القتل المستشرية في النفس البشرية منذ الازل .

اما اذا كان عليه ان يمارس القتل فانه مرغم على ذلك ولا ريب وفي سبيل دفع الاذى عن شعبه وبلاده .

الفصل الثالث

في الطريق الـى يعبد

بعد يومين التقينــا في نفس المكــان والزمان قــرب زيتونة الهرمة . فسألته ان يحدثني عن نشاطات جماعته بيل معركة (يعبد) الاخيرة . فروى لي بعض اخبار تلك فتكات والهجمات المتفرقة . قال : بدأنا مرحلة الهجوم ، لكن بشكل متفرق وباعداد قليلة جدا . منــذ ان اخذنــا لحصول على السلاح . خذ مثلا حادثة قرية نحلال . لقد مكن احد اعضاء الجهادية من صنع قنابل خاصة في معمل سفير يملكه . وقد سلم تلك القنابل الى صالح احمد طه من رية الصفورية . الذي كان يقوم ببعض العمليات المحدودة ي مرج ابن عامر هو واحمد توبه وابراهيم احمد طه ومصطفى لي احمد . وقد نسفوا باحداها محرسا للحراس اليهود في ستعمرة نحلال فقتلت اثنين منهم . الا انالسلطات استطاعت عد حين ان تعتقل مصطفى علي احمد ، رحمه الله ، واخذت نه اقرارا بعد طويل تعذيب واعدمته . كمــا حكمت علــى لفلاييني صانع القنابل بخمسة عشر عاما ولم تحكم على

البقية بشيء لانهم استطاعوا التملص بذكاء ودهاء عجيبين اذهلاني . وكان معهم في المحاكمة ابو ابراهيم الكبير (خليل محمد عيسى) . كذلك حادثة مستعمرة عليتا حيث هاجمنا المستعمرة وجرحنا بعض عناصرها ودمرنا خزان الماء فيها . كذلك تصدينا لسيارة كبيرة تحمل بعض اليهود الوافدين حديثا قرب الياجور هنا وفتكنا بأغلبهم كما قمنا بتنفيذ حكم الاعدام بمختار قرية العفولة المتعاون مع الانكليز وقد كلفنا ذلك اعتقال اثنين من رفاقنا من قرية سويلم واعدامهما . وعندما قام يريد المسير قلت :

ــ هلا حدثتني بمزيد من تلك الاحداث ؟

ــ عفوك يا بني فانني بانتظار من يحملني الى القدس للاجتماع بالحاج امين وأرى السيارة تلوح من بعيد .

ــ الحاج امين ، ولم ؟

ــ بعض الرفاق يلحون علي بضرورة اعلان الثورة وانا أراها لم تنضج بعد . ونتيجة لبعض نشاطاتنا فقد اوشك امرنا ان ينكشف ونحن مضطرون على الاستمرار في تلك الهجمات لان الوضع العام في البلاد في حالة ركود عجيب. لست ادري يبدو انك حين تبدأ عملا ، في مجال الثورة ، فمن الجنون ان تقف في منتصف الطريق .

ــ وما علاقة الشيخ امين بكل ذلك ؟

ــ حجم المنطقة التي ننتشر فيها وحجم قواتنا وتسليحنا لن يمكنانا من الصمود طويلا في وجه الانكليز والمستوطنين الصهاينة . وسأحاول اقناعه بتحريك الثورة في الجنوب

لخلق نوع من التوازن مع الشمال . وعندها يمكن للثورة ان تعم البلاد ويصبح من الصعب اطفاء جذوتها . وقبل ان يودعني سألته :

ـ وهل انت متفائل بسفرتك هذه ؟

فبدا عليه حزن عميق . وهز رأسه علامة النفي مبتسما ورفع يده مودعا ومضى .

بعد ايام التقيته من جديد .

ـ وهم ، ما هي اخبار رحلة القدس وماذا تراك تنتظر هنا . ما اظنك تقوم بفروض الصلاة وسبحتك الطويلة في يدك هـذه .

فضحك حتى اوشك على الاغراق في الضحك .

ـ يا بني ، انتم معشر الشباب تضعون دائما بيننا وبينكم حاجز الدين ، صدقني الا ضرورة لذلك . خاصة وانك تعرف انه كان خير حماية لثورتنا الصغيرة التي اذا قيض لها ان تنضج وتستمر فستكون علامة مميزة على طريق الثورات في المستقبل اسلوبا وفكرا وتنظيما .

ـ والحاج امين ؟

ـ لقد كان بيننا حـوار وجدل طويلين . الرجل لا يؤمن بغير السياسة والاساليب السلمية وسيلة لبلوغ اهدافه . وبعد الحاح وجدل مرير . طلب مهلة ايام . وقد بعثت اليه امس بأحد رفاقنا الاخ محمود سالم . الذي يلقبه الاخوان بأبو احمد القسام ليأتيني بالخبر اليقين .

ـ ليساعدكم ماديا على الاقل .

ـ رغم أهمية المساعدات المادية الا انها في مثل حالتنا نـوع من الحكم بالاعدام مع الكثير الكثير من الشفقة . وحتى على هذا الصعيد ، طالبته بالتوقف عن الانفاق على بناء المساجد وتزيينها بأبهظ النفقات قائلا له ان بـذل المـال في سبيل الجهاد يأتي قبل ذلك . ولكنه ايضا أصر على خطته ووعد بتخصيص بعض ما يصله من التبرعات واموال الاوقاف لنا .

يتلفت حواليه بقلق وحيرة . يقوم لساعته .

ـ الى أين ؟

ـ ارى انه تأخر قليلا واخشى ان يكون قد لحق بـه بعض الجواسيس فقرر عدم الحضور . على العموم سنعقد اجتماعا حاسما هذا المساء هو من اخطـر الاجتماعات في تاريخ حركتنا ، في بيت احد العمال البعيد عن الشبهات اترى الى ذلك الدخان المتصاعد من كوخ شبه منفرد ؟

ـ اجل .

ـ هو ذاك . تعال في العاشرة ليلا . وداعا .

ـ الى اللقاء .

الساعة العاشرة ليلا كانت الزواريب عابقة بروائح العفونة ، مليئة بالحفر والمياه الراكدة . نباح كلب من هنـا وصراخ طفل من هناك . رائحة روث الماشية في الزرائب تملأ الهواء والضوء يأتي خافتا من قناديل الغاز عبـر شقوق الابواب غير الامينة على ما وراءها .

لهاث القنديل ، ترك مـع الزمن بقايا علـى الجدار الطيني . تتراقص علـى الجدران الاخر ، اشباح شتـى كلما ارعشته هبة مـن ريح تسرب عبـر شقـوق النافذة الوحيدة والباب المجهد . وفي حفرة صغيرة فـي الارض كان هناك بعض جمرات خابيات بقربها ابريق شـاي كبير . دخان اللفائف يختلط بدخان القنديل وينعقد في جو الغرفة فيزيدها غموضا وعتمة . كـان هنـاك القسام يجلس عن يمينه ابو ابراهيم الكبير والشيخ حسن الباير والشيـخ نمر السعدي وعـن يساره الشيخ ناجي ابو زيد والشيخ محمود سالم المخزومي والشيخ كامل القصاب . وآخر تبدو عليه ملامح ضابط سابق . وكان هناك ايضا العبد قاسم

ومحمود زعروره ومحمد صالح . يلتفت القسام الى المخزومي :
ـ ايه يا ابو احمد . ما هي اخبار الجماعة في القدس .
ـ ينصحون بالتريث . ويفضلون التفاوض والاحتجاج والاضرابات خذ وطالب هذا هو منطقهم السائد ..
ـ يلتفت صوب القصاب ، واماثر الغضب تلوح على محياه . فيغض هذا الاخير من طرفه . يسود صمت ثقيل .
ـ وماذا ايضا ؟
ـ ارسلوا معي هذا المبلغ من المال .
يمد القسام يده يتناول ربطة جنيهات منه ، يتأملها بقنوط .
ـ والله لولا اننا بحاجة لكل « بارة » فيها لالقمتها هذه النار .
بضعة مئات من الجنيهات وكفى الله « المؤمنين » شر القتال . أهي لدعم ثورتنا ام لاسكات صوت ضمائرهم الصارخة في وجوههم لتخليهم عنا وعن واجب الجهاد .
يلتفت صوب الباير والسعدي :
ـ وماذا في صندوقنا من المال ؟
ـ يلتفت كل منهما الى الآخر بحسرة . ثم يجيبانه بصوت واحد :
ـ مئة ليرة استرليني لا غير .
يقذف اليهما بالربطة ويتوجه بالخطاب الى الجميع :
ـ ايها الاخوة . لقد بذلتم قصارى جهدكم حتى الآن .

ولقد حلت ساعة الصفر . فمن رأى بنفسه استعدادا للتخلي فليفعل اللحظة لانه ان فعل بعد الآن يصبح تخليه نوعا من الخيانة وهذا ما انزهكم عنه . لقد تخلى عنا الجميع وطوق الاعداء اصبح مشدودا حولنا كما ان وضع البلاد لا يحتمل مزيدا من الركود انـي ادعوكم اليوم الى الشهادة . واصدقكم القول بأنني أرى فرص النجاح وتحقيق الانتصار نادرة وبعيدة جدا . الانتصار الوحيد الذي يمكن لنا ان نحققه هو ان نؤجج نار الثورة في الجماهير باستشهادنا .

ابو ابراهيم الكبير : ولكن يا ابا محمد أليس هناك من فرصة للانتظار ، للنزول تحت الارض من جديد ؟ .

ـ يا اخي ابو ابراهيم لقد كنت قبل اشهر تلح على ضرورة الخروج حتى لظن البعض ان ثمة انشقاقا في جماعتنا . وكنت اطالبك بالتريث . انا اعرف انك تنطلق من موقع مختلف تماما عن مواقع « الجماعة » . ولكن فات اوان الانتظار اما ان نتخلى عن كل شيء ويهرب كل منا بجلده، اذا وجد الفرصة لذلك ، واما ان نقدم وقد صارحتكم بأننا قادمون على فعل الشهادة والموت .

ـ انت استاذنا ، ولطالما علمتنا ان الثورة لا تقوم بغير توافر اسباب مادية وظروف مواتية . فهل نعلنها بمئة جنيه وهبة الجماعة الهزيلة تلك ، لقد باع رفاقنا مصاغ نسائهم، ولم يبق في ايديهم ما يبيعونه ليشتروا سلاحا وذخيرة والاسلحة المتواجدة بين ايدينا مع ذخائرها لا تكفي لمعارك

ايام مع العدو . لو انك وافقت على خطتنا بتحصيل المال لكنا في وضع مختلف الآن .

ـ كلكم يعرف انني ما اتخذت قرارا في يوم بمفردي وانني كنت ارجع اليكم في كـل الملمات الا انني ، وفي مناسبات نادرة جدا ، كنت اتشدد واصر على موقفي . حين الححتم في الماضي على الخروج وقفت شبه وحيد فـي وجوهكم وها أنذا اقف الآن شبه وحيد ايضا مع ضرورة الاعلان والبدء بالخـروج الـى ساحة الضوء . واحـدى تلـك المناسبات النادرة هي قضية جمع الاموال . اغلبكم كان يرى ان نجمعها بكل وسيلة ممكنة حتى لـو اضطررنا الى النهب والسلب في سبيل انتصار الثورة . اواه يـا اصدقائي ان تخلينا عن قيمنا فأي شيء يبقى لنـا هـل تريدوننا ان نقـول بمنطق ذلـك الايطالي « الغاية تبرر الوسيلة » . بالمناسبة لقد اجريت اتصالا خاصا بالطليان. فهم اعداء الانكليز وعدو عدوك صديق لك . وقد وعدوا بالدعم المادي والمعنوي حالما تقوم الثورة . ولكنني لا اخفي عليكم انني لا انتظر منهم الكثير . فالاجانب دائما يريدون عملاء لهم ولا يقبلون بالتعاون مـع الثـوار الحقيقيين ، خاصة اذ لم تكن لهم مبادئهم الواضحة ، اذا كانوا مجرد دول كبرى تحلـم بزحزحة اعدائها مـن بلادنا لتحـل محلهم .

المالكون الكبار ورجال الدين الاغنياء واصحاب البنوك والسماسرة ، وكلهم يستحقون السحق والاستيلاء علـى

اموالهم . انا معكم . ولكن أية محاولة مـن قبلنا ستجعل سمعة جماعتنا في الحضيض . ولا تنسوا ان أجهـزة الدعاية المعادية ضخمة وشعبنا مـا يـزال بسيطا وطيبا وسريع التصديق . اعتقد ان هذه الامور قد سبق لنـا واتخذنا قرارات واضحة بشأنها ولا ضرورة لطرحها من جديد . ومـا زلت على اعتقادي بأننا لـو قيض لنـا النجاح وهو امر شبه مستحيل بالنسبة للظروف الراهنة . فان الناس ، كل الناس ، سيتقدمون لمساعدتنا وبالشكل الذي نتمناه .

يلتفت صوب الجميع يتصفح وجوههم واحدا واحدا :
اريد رأيكم واحدا واحدا في القضية المطروحة .
مثل هذا القرار التاريخي لا اريد ان اتحمل مسؤوليته لوحدي . اما الخروج او حل الجماعة وافتراقنا منذ الساعة كل في حال سبيله .
يخيم صمت رهيب علـى الغرفة العـابقة بالدخـان والعتمة . ابو ابراهيم يرفع يده قبل الجميع بالموافقة يلتفت صوبه القسام ، يضع يده على كتفه مبتسما بينما ظل لدمعة يلوح خلف اجفانه .
- بارك الله فيك يا اخي ، لانت خير القادة . تعارض وتناقش وتبدي وجهة نظرك واضحة صريحة ، ولكنك في الساعات الحرجة تكون اول من يتخذ قراره .

يتابع البقية رفع ايديهم ، يبدو الشيخ كامل ممتقع الوجه .

ـ ما بالك يا شيخ كامل ، خيرا ان شاء الله ؟
ـ ابدا . ابدا يا ابا محمد انني متوعك الصحة قليلا لا غير .
على الجدار المقابل تبدو صورة من نوع الطبعات الشعبية للعشاء الاخير تمثل السيد المسيح وحواريه . يحدق فيها مليا ثم يبتسم بمرارة .
ـ على بركة الله اذن ارجو ان نوزع المهمات منذ اللحظة :
نحن الآن في ٢ تشرين الثاني من العام ١٩٣٥ . وعليكم الانطلاق كل بجماعته الى المنطقة المخصصة له انها المرحلة العلنية لثورتنا الصغيرة . توسعون رقعة اتصالاتكم والتحريض بين الشعب . الريف هو مكاننا الطبيعي في هذه المرحلة . اما انا فسأبقى حول حيفا لمدة اسبوع أو اثنين . وسألحق بكم وسيكون اللقاء الكبير في غابة يعبد في ما بين الكرمل وجنين حيث تكون حيفا قريبة من ايدينا . ومرسى الاسطول البريطاني فيها . يتناول ورقة من جيبه ويبدأ بالقراءة :
ابو ابراهيم سيكون معك كل من ابو علي ابراهيم زعروره ومحمود زعروره والشيخ محمد الحنفي ، علي الحاج عبيد ، ابو محمد الصفوري ، عطيه احمد عوض ، فرحان السعدي ، نايف المصلح ، يوسف ابو ديره ، عارف الحمدان ، محمد الخالدي ، خالد الخالدي ، محمد صالح ابو خالد ، عبد الفتاح ابو عبدالله ، وسيكون معكم الاخ جلادت ، مشيرا الى الضابط السابق ، لانكم ستكونون القوة الضاربة في البداية والقيادة حاليا في ايديكم حتى يتم لقائي بكم في يعبد .

اما انت يـا شيـخ ناجـي فتتجـه الـى الضواحي والمستعمرات وليكن معك ابو علي مزرعاوي ، عبدالله يوسف، معروف حجاوي ، توفيق الزيري ، محمود دبراوي ، نايف الزعبي ، محمد أبو صعب ، سرور برهم ، وصبحي ياسين، والشيخ عبدالله من كفردان والعبد قاسم . وستكون مهمتكم قتالية الى جانب المعلومات واوصيك بصبحي ياسين فهـو رجل صلب قوي الشكيمة ويمكن الاعتماد عليه .

اما انت يا شيخ نمر فستبقى معي وسيكون معك كل من يوسف الزيباوي ، محمد حنفي المصري ، اسعد المفلح والشيخ حسن (مشيرا الى الباير) ، احمد عبد الرحمن جابر ، عربي بدوي ، محمد يوسف ، محمدالحلولي ، معروف الحاج جابر والمخزومي (مشيرا الـى ابي احمد القسام) . واما انت يـا شيخ كامل فانتق لك بعض الانصار واتجه الى جماعتك في القدس لعلك تستطيع ان تفعل شيئا . على بركة الله والى اللقاء في غابة يعبد هذا (مبتسما) اذا كان لنا ان نجتمع هناك .

ابو ابراهيم : وكـل الله يـا شيخ ، وتفاءلوا بالخير تجـدوه .

ـ في الثورة يا اخي التفاؤل يعني ارقاما ومخططات وعلما . وعلى ضوء ذلك لا ارى مجالا للكثير من التفاؤل . ومـع ذلك . فلقد عزمنا ولنتوكل . يودعون بعضهم . لكأنهم في وداعهم الاخير ويغادرون البيت فرادى .

في الايام الباقية . قلما كنت القاه ، وكان دائما على

عجلة من امره ، بيته لـم يعد يضيء فيـه قنديل العشايا ، ظـل فاطمه ما عاد يلـوح رائحا وغاديا . وفي مسجـد الاستقلال مـا عدت القاه اذا مـا عن لي ان استوضحه شيئا . كـان الشيخ الحوراني هـو من يلقي الدروس بعد صلاة العشاء ، وكان الحضور يتناقص كـل يوم فلم يعد يجتمع اليـه سـوى الشيوخ الهرّم ، وكانت دروسه في غالبيتهـا حـول الوضوء وتفصيلاته . واهميـة صـلاة التراويح .

في احـد زواريب « الياجور » رأيته يسرع الخطى من بعيد . وجبته تخفق خلفه . فأسرعت في أثره .

ـ يا ابا محمد ، يا ابا محمد ، اما تتوقف قليلا يا استاذ فقد انخطفت انفاسي وانا اهرول وراءك .

ـ ها ... ما زلت اذن تعدو وراء خيوط قصتك لقد اقتربت من العقدة يا صاح . واظنك وصلت الـى الجانب المثير فيهـا .

ـ اراك تحدثني بشؤون القصة ايضا .

ـ من يدري ، لعلي كنت ساصبح كاتبا روائيا مثلك لو لم اتنكب طريق الثورة .

ـ اشكر ربك يا ابا محمد انك لم تفعل ، فشتان بين مـن يصنع الاحداث ، ومـن يعدو لاهثـا وراءها لاقتنـاص آثارها منه .

كان متجهم الاسارير وفي بيارة قريبة كان بعضهم يشعل نـارا فـي تلـك العشيـة ربمـا لاحـراق الاعشـاب

الضــارة ، ربمــا لقتل الحشرات او لتنظيف الارض مــن اشجارها وبناء مستعمرة صهيونية عليها . وعلى ضوء النار الملتهبة الوافدة من بعيد كانت قسمات القسام تبدو اكثر صرامة وحدة وتجهما .

ــ خيرا ان شاء الله ، وهل في الجو ما ينذر بشر مستطير ؟
ــ لا يا بني . كل ما هنالك انهم احكموا الطوق حول عنــق عمك القسام وجماعته . وما عادت تطيب لنــا الاقامة في حيفا وضواحيها . ان حليــم البسطة يــؤدي اجــل الخدمات لاسياده هذه الايام .
ــ ومن هو « بسطة » هذا ؟
ــ انه ضابط القلم السياسي في شرطة حيفا . ويبدو انهم أيدوه باعداد كبيرة من الجواسيس الجدد وهم حتى الآن لم يستطيعوا التوصل الى شيء الا انهم يشكون بنا ، ولهذا يضيقون علينا انفاسنــا ويراقبون حركاتنا وسكناتنا . تصور النذل ، لقد وصل بــه الامر ان حقق مع كل جيراني ولم يرعو عن اخذ فاطمة وابنائها الصغار الى القســم ليناموا ليلة كاملة هناك . الا ان هذه الانسانة تعد بمستقبل ثوري وسياسي رائع للمراة العربية في مقبلات الايام ، لقد كانت اشجع من الرجال واقوى شكيمة منهم ، ولم تبح بحرف مما تعرف . رغم أن ما تعرفه ليس بكثير .
ــ وماذا تنوي عمله الآن ؟
ــ نحن الآن في مساء الثامن عشر من تشرين الثــاني ومــع الفجر سأنهض مع احد عشر رجلا من الرفاق لملاقاة بقية

الاخوة في احراش يعبد .

ـ وبعد ذلـك ؟

ـ ان تم لنا تجاوز نقاط التفتيش وتضليل العيون المبثوثة في كل مكان ، والتقينا ، فسيكون لنا شأن آخر معهم .

ـ اوضح ارجوك ؟

ـ الخطة تقضي بتجميع كل قواتنا من اعضاء « الجهادية » وانصارها واصدقائها ، لشن هجوم خاطف وكاسح على حيفا وضواحيها . المدينة ستسقط بسرعة لان الناس كلهم معنا . وفي الوقت ذاته سيقوم بعض الاخوان مـن الصيادين الذين تعودوا على الغوص بوضع عـدة الغـام صنعناها محليا في سفن الاسطول البريطاني الراسي فـي ميناء المدينة ممـا يدخل الرعب في قلوب الانكليز ويشل حركة قواتهم المتواجدة هنـا ويكبدهم خسائر فادحة فان تـم لنا ذلك اعلنا منطقة حيفـا والشمال منطقة محررة ودعونا كل الثائرين الذين وراء سلاحهم والذين القوه الى حين من فلسطين وكل البلاد العربية للانضمام الينا . يجب ان تكون ضرباتنا سريعة ومتلاحقة لنستطيع تأمين الدعم ووصول نجدات الاسلحة والرجال . فمـا بين ايدينا من السلاح والذخائر خاصة لا يقوم بأود معـارك طويلة الامد .

ـ أرى ان الخطة رائعة والهدف عظيم ولكـن هـل نظمت الامور بالشكل المطلوب لتنفيذ كل ذلك ؟

ـ اواه يا بني ـ وتنهد بعمق ـ الحقيقة ان شيئا لم ينضج بالشكل المطلوب واننا مدفوعون الى المعركة قبل اوانها . ولهذا ترى كل هذا التجهم البادي علي . لقد ارغمتنا كل الظروف المحيطة على الخروج . ووضعنا امام الخيار الصعب فأما ان نترك كل شيء ونفر بجلودنا مشردين في بقاع الارض . حيث نترك المجال رحيبا امام تجار السياسة وسماسرتها . واما ان نقدم على خطوة متهورة فلا نخذل الناس الذين علقوا آمالهم علينا . وانا في الواقع انظر الى المستقبل . الى التاريخ . قد تكون خطوتنا انتحارية . وقد نمزق كل ممزق ، ولكننا بذلك نقدم الدليل للاعداء على ان شعبنا لم يفقد نخوة القتال . ونعطي بذلك للناس الامل والنقمة والعنفوان . ان انتهينا اليوم ، فثق بأننا سنكون البداية لكل ما هو جليل وعظيم في مستقبل ثورة شعبنا . ان الطريق ، أكاد أرى حتى التفاصيل ، لطويل طويل . فلنكن اول قافلة من قوافل الفداء ، ان لم يكن لنا ان ننتصر ، فعلى الاقل ، لنحقق شرف المحاولة .

كان حزينا وشاعريا وراسخ الجنان في آن معا . وكنت احس بالحسرة الكاوية تعتصر قلبه .

ـ عفوك يا بني ، صدقني انني لا استطيع البقاء معك اكثر . وما عليك من الصباح الباكر الا ان تراقب الاشياء عن كثب . وستكون لك القصة التي تود حاول ان تكتبها بشكل معقول ، لا بأس من تلوينها قليلا من عندياتك .

فحتى قصتك ـ مبتسما ـ لها اهميتها في مدى رؤيتي لمستقبل القضية . عم صباحا يا بني والى اللقاء ...

وابتلع الظلام ظله الرحب ، كسر من اسرار الطبيعة . وحملت لي الريح المسائية الباردة خفق خطواته الموغلة في دروب الليل الموحشة .

الفصل الرابع

الاستشهاد الكبير

في الصباح الباكر ، « الفطيطه » ما زالت توشح اشجار الليمون والزيتون ، شخوص يخرجون من جهات متفرقة في ضواحي حيفا ويتجمعون حول القسام قرب الزيتونة الهرمة ، وعندما اصبحوا احد رعشر رجلا ، تأملهم مليا وقال لهم :

ـ هل ودعتم عيالكم وامنتم لهم مؤنة بضعة ايام ؟

فهزوا رؤوسهم على التوالي بالايجاب .

ـ وهل كلكم جاء بسلاحه معه ؟

حسن الباير : اجل يا ابا محمد ، وقد قمنا بعملية غزو على حلي نسائنا واشترينا بها جميعا ذخيرة للسلاح .

يتلمس « جنادات الخرطوش » باعتزاز .

يلتفت الى محمد حنفي المصري ضاحكا :

ـ وانت يا ابو حنفي لا زوجة لك لتبيع حليها من اين امنت حاجتك من الذخيرة ؟

ـ البركة بالاخوان يا « ابو محمد » . لقد اعطاني كل منهم بعض ما يملك فأصبحت امتلك منها اكثر منهم .

يبتسم الجميع .

يتابع ملتفتا الى رفاقه :

الشيخ معروف الحاج جابر من يعبد ، وهو اعرف منا جميعا بمسالك المنطقة ومفاوزها فليكن دليلنا فيها . هل ينقص احدكم شيء ، واذ لا يأتيه جواب يقول :

على بركة الله اذن . كونوا حذرين ، اياكم واطلاق النار جزافا الا اذا اضطررتم فالجواسيس في كل مكان ودوريات العدو ناشطة .

على بركة الله يا اخوان . ولنسر مثنى وفرادى ، على مسافات غير متباعدة كي لا نلفت انتباه العابرين .

تقترب من الجماعة ثلاثة ظلال نسائية . وما يلبثون ان يتبينوا فاطمة وجارتين لها .

ـ صباح الخير يا ابا محمد ، صباح الخير يا « اخواتي » .

ـ صباح الخيرات ، اهلا وسهلا . ولكن ماذا اتى بكن في هذا الصباح وانتن تعرفن الاحوال جيدا ؟ .

ـ جئناكم ببعض الزاد الذي قد تحتاجون اليه ولنقوم بواجب الوداع .

يلوح ظل الدموع العابرة في عينيه كعادته في حالات ضعفه .

ـ يا فاطمة يعلم الله والخلق من الاصدقاء والرفاق والجيرة انك كنت خير اخت وجارة لي . ولكنني حرصا مني على

سمعتك كنت قد عقدت قراني عليك برغم عهد الاخاء الذي بيننا . وقد آن لي ان اخلي سبيلك امام الله وهؤلاء الاخوان فنحن في رحلة قد لا نعود منها والواجب يقضي بذلك ، اشهدوا ايها الاخوان انها طالق ثلاثا .

ـ تنهمر الدموع من عينيها ، واذ يحس بدبيب الضعف في كيانه . يصيح بها بمهابة معسولة بحنان عميق :

ـ لا يا اخت فاطمة ، عهدي بك اخت الرجال والدمع لا يليق بك ، كوني خير ام للثوار الصغار بيتي وما املك لك ولهم .

يأخذ ورقة وقلما ويكتب الكلمات التالية :

« الى كهفي الروحي اخي الرشيد امده الله وايانا بروح من عنده : انني واثق من نفسي اللحظة . وان صوتي سيجد صداه في كل مكان عند اول صيحة . استودعك الله » .

ـ اعطي هذه الورقة الى رشيد الحاج ابراهيم اذا التقيته . رافقتكن السلامة . تنسحب النسوة الثلاث ، تلتفت فاطمة اليه بعد خطوات فيشيح عنها بوجهه ، ما ان انطلقت الجماعة في سبيلها ، حتى بدا من بعيد شبح قاتم يعدو باتجاه المدينة ، لقد كان الجاسوس المعروف احمد نايف الذي تتبع بعضهم وعرف بانطلاقهم فراح يبلغها ضابط الإستخبارات حليم بسطه الذي ابلغها بدوره معاون مدير البوليس المتر هاوس فسير الدوريات في الحال لتتبع آثارهم ، واتصل بمدير البوليس الذي حضر في اليوم التالي وجهز قوة من خمسمئة عسكري مجهزين بمدافع الهاون والرشاشات ومحمولين على سيارات مصفحة

وجيبات ، كما خصصت طائرة استكشـــاف لمرافقتهم من الجـــو .

يوم التاسع عشر من تشرين الثاني وبينما كان محمد سالم المخزومي ومحمد الحلحولي في دورية متأخرة التقيا باحدى الدوريات وعدد افرادهـــا اربعـــة بقيـــادة شاويش يهودي : فأطلقت النار عليهما واصابت الحلحولي في صدره فما كان من المخزومي الا ان « تمترس » واخذ يمطرهم وابلا من رصاصه ، ناسيا في حميا الثأر لرفيقه وصية قائدهم الشيخ القسام ، فأردى الشاويش اليهودي قتيلا وجـــرح آخر . فولت الدورية هاربة وما لبث خبـــر هـــذه المعركة الجانبية ان انتشر في كل المنطقة التي اصبحت كخلية النحل تعج بالدوريات . اما الحلحولي فقد فارق الحياة بعد ساعات اذ وصل رفيقه الى باقي الجماعة . وعندما عرف القسام بالامر اكتفى بالقول : لا حول ولا قوة الا بالله . وصلى علـــى الشهيد .

في صباح اليـــوم التـــالي ، كـــانت غابات يخبـــد كلها مطوقة بالقوة التي سيرها مدير البوليس وابتدأت المعركة مع الفجر . لقد حاولت الجماعة ان تشق طريقها بكل الوسائل باتجاه قرى الشمال على امل الالتقاء ببقية المجموعات حيث من المفروض ان تأتيهم بعض المساعدات عبـــر الحدود الا ان كل تلك المحاولات باءت بالفشل . واذ أحسـوا انهـــم وقعوا في الفخ اخيرا ، قرروا القتال حتى النهاية .

القسام : يا اخوان يبدو اننا قد بلغنـــا النهاية فلنجاهد كما يجب ان تكون فـــرق الجهادية . ولست بحـــاجة لان

احدثكم ونحن في ضيق من وقتنا عن فضائل الشهادة . اقتصدوا ما استطعتم بالذخيرة ، وحاولوا الا توجهوا رصاصكم الا للانكليز واليهود من الجند ، توزعوا بشكل دائري . بقينا عشرة الآن ، فلنكن اثنين اثنين، توكلوا على الله ولا تنسوا شعبكم وقضيتكم .

وازداد ضغط النيران عليهم من كل جانب حتى لاضطروا ان يحشروا جميعا وفي واد ضيق قرب قرية الشيخ زيد . واصبح قضاء جنين وكأنه ساحة حرب وقد اصيب في هذه الاثناء كل من يوسف الزيباوي ومحمد حنفي المصري. اما الزيباوي فقد فارق الحياة لساعته . واما المصري فبقي بعده دقائق معدودات ، اوصى رفاقه خلالها الا يقبروه الا في فلسطين على ان يرسلوا ثيابه وسلاحه الى اهله في الصعيد .

وفجأة توقف اطلاق النار وسكن كل شيء وكان ق مضى على المعركة حوالي الساعتين . وجاءهم نداء من مك للصوت :

ـ يا شيخ عز الدين القسام لم يبق لك من مهرب ، فالمنطقة كلها مطوقة . سلم سلاحك انت وجماعتك ونعطيكم الامان . ان مدير البوليس بناء على الصلاحيات المخولة له يعدك بأن تصبح نائبا لمفتي فلسطين وان يعوض عليك وجماعتك بالمال والوظائف اللائقة . فصاح الشيخ بأعلى صوته :

ـ خسئت انت ومدير بوليسك الانكليزي لو اردت المساومه لقبلت ذلك مع الفرنسيين في سوريا من قبلكم . والتفت الى من بقي من رفاقه :

ـ يا اخوان دونكم وقمة الجبل ، حيث يمكن لرصاصنا ان يكون اكثر فعالية فما دمنا قد قررنا الشهادة فلنمت ونحن في مكان شاهق .

وتقدمهم وهو يطلق طلقة ويصعد خطوات محاولا الانتقال من شجرة الى اخرى فقد سبق للشيخ ان اكتسب خبرة في حرب العصابات بشمال سوريا عندما كان يقاتل الفرنسيين .

وفي القمة يربض كل منهم خلف صخرة او شجرة ضخمة بشكل دائري وتستمر المعركة بينما تتقدم حشود العدو . وتأخذ الرصاصات المنطلقة من القمة بالتباعد . انها الذخيرة وقد بدات بالنفاد . عند الساعة التاسعة تماما . يجلجل صوت القسام ، يقف فاردا يديه باتجاه السماء يجمد الجميع للحظات وهو على هذه الصورة ثم يهوي دفعة واحدة كنسر ذبيح او سنديانة ضخمة حانت ساعتها . يحاول نمر السعدي ان يصل اليه يصيح به رفاقه بينما رصاصة تمزق كتفه الايمن فيرتمي قيد خطوتين منه ، يهمس اليه :

ـ لا تتوقفوا ، من يبقى منكم حيا عليه الا يتوقف فان لم تستطيعوا لوحدكم التحقوا بأخي سعيد العاص . واذا قدم بعضكم للمحاكمة فليرفع صوت قضيتنا عاليا انها البداية وليست النهاية .

عربي بدوي يطلق طلقة او اثنتين ثم يتوقف . لقد نفدت ذخيرته ، يخبط بندقيته على الصخرة امامه فينكسر اخمصها ، ويرتمي ناشجا في بكاء مرير . تتوقف بقية البنادق تباعا .

يوسف الزيباوي ارتخت كفه عنها فارتمت الـى جانبه كالقتيل ، اسعد المفلح واحمد جابر بقيت ايديهما مشدودة على بندقيتيهما دون أي معنى . محمد يوسف ومعروف جابر غابا في حالة ذهول غريب ، لكأنهما من غير هـذا العالم . برز جنود العدو من خلف الاشجار واخـذوا يتقدمون صوبهم ببطء وايديهم على اسلحتهم ، المخزومي يقف متماسك الجأش ويلتفت الى رفاقه :

لا حيلة لنا بهذه العصي في ايدينا فلنسلم ، كما يسلم الزجال . تذكروا قولة قائدنا العظيم : اننا ما نـزال فـي البداية .

يتقدم مدير البوليس ، يؤدي التحية للقسام . يصيح ببعض القرويين ، الذين بدأوا يتجمهرون وببعض الجند ان يحملوا جثث القتلى والجرحى من الطرفين ، ويسود سكون مطلق خاشع على الجميع . كان الاعداء يتصورون انهم امام قوة كبيرة وعقدت السنتهم المفاجأة . لقد قاتلوا ثلاث ساعات احد عشر رجلا . وهم جيش مـن خمسمئة جندي بكـل عدتهم وعتادهم ، كان الجميع ينحدرون باتجاه الوادي وكلهم منكس الرأس والسلاح ، لا كلمة ولا صوت سوى ارتطام سلاح بصخرة او تدحرج حجر من على السفح ...

الفصل الخامس

الاكفان الملطخة بالدم

في صبيحة الواحد والعشرين كان موعد جنازة الشهداء الاربعة . وقد استعد الانكليز بقوات ضخمة من البوليس لمواجهة اية مضاعفات وقد اعلن الاضراب العام في عموم البلاد .

اصر الجميع على ان يدفنوا بثياب المعركة الملطخة بالدماء . لم تكن جنازة بالمعنى التقليدي فقد سار وراءها عشرون الف مواطن وكانوا في غالبيتهم من الفقراء وكان ذلك اليوم هو اليوم الاول من الثورة الكبرى التي عرفت بثورة « الست والثلاثين » .

لم يجر اي حادث بين المشيعين رغم محاولة الدس والتفرقة التي حاولتها السلطة . كان رفاق القسام كلهم هناك ورغم قلة عددهم بالنسبة للناس وللتيار البشري الجارف ، فقد كانوا مسيطرين على كل شيء واستطاعوا ضبط المسيرة وتوجيهها في الوجهة المطلوبة . بحيث تكون

بحق بداية لتحريض جماهيري ضخم منظم . بداية للثورة الكبرى .

كانوا جميعهم هناك ، وراء النعش مشى محمد الحنفي وعلي الحاج عبيد ، رفيقاه اللذان واكباه من جبله واشتركا معه في الثورة السورية ، ثم في فلسطين وكان هناك فرحان السعدي الذي اعدمه الانكليز فيما بعد وهو في الثمانين من عمره ، ابو ابراهيم الكبير ، محمود حجاوي ، صبحي ياسين والزيري والدبراوي و .... كلهم كانوا هناك وايضا كانت هناك فاطمة ومن ورائها تنظيم نسائي حقيقي وقد نال منها جند الانكليز الويلات في ذلك اليوم العظيم . لقد اختفى اليهود الوافدون مجددا من حيفا وما يحيط بها . وكان الانكليز ذوي حنكة . اذ لم يلبثوا ان سحبوا قواتهم جميعا بعد ان جرح عدد كبير منها بحجارة المتظاهرين . وعند مركز البوليس رشقه المشيعون بالحجارة ومزقوا العلم الانكليزي وظلت فاطمة تحتفظ بقطعة منه طويلا كرمز لاول علم استعماري ينزله الثوار في فلسطين بعد القسام . وعندما بلغت الجنازة محطة المدينة ، هاجموها ايضا واضرموا فيها النيران . وانعقدت سحب الدخان قاتمة مكفهرة في سماء حيفا وقد أصرت الجماهير ، على حمل النعوش وفي مقدمتها القسام مسافة عشرة كيلومترات الى ضاحية الياجور حيث ووري الشهداء التراب . كانوا واحدا من شمال سوريا وآخر من صعيد مصر واثنين من فلسطين . لم يوص القسام بنقل جثمانه الى جبله . كانت الياجور ، هي جبله ، ترى ما

حل بجدثه الآن . هل بنوا على انقاضه مستعمرة جديدة ام ناد ليلي ام مباءة ؟

اما الزعماء التقليديون فلم يحضروا الجنازة ذلك اليوم، بل اكتفوا بارسال البرقيات الباهتة التي لم يكلف احد نفسه عناء قراءتها . لقد جبنوا عن ممارسة عادتهم التقليدية ، وهي قتل القتيل والسير في جنازته . لقد قتلوا القسام بتخاذلهم وتخليهم عنه بل وبتآمرهم عليه ، ولكنهم جبنـوا عن متابعة الشوط ، وكان الاكثر حزنا عليه ونقمة من اجله هم الاطفال والنساء ، وهنا يكمن سر عظمة الرجل .

في صباح اليوم التالي ، ذهبت باتجاه المقبـرة وقطفت في طريقي بعض الازهار البرية لاضعها على قبر القسام ، لم أكن بحاجة الى الصـلاة لانني كنت قد نسيتها وانا دون الخامسة عشرة . وبينما انا أغيب في سرحات طوال ، لمس احدهم كتفي ، وكان صديقي الشيـخ الى جانبي يبتسم ابتسامته المفعمة بالحزن والحنان والفرح الطفولي . قال :

ــ الا تفسح مجالا لسواك من الزائرين؟ وتلفت غير بعيد عني.

كانت هناك ، تتشح بالسواد وفي يدها باقة مـن الحبق والقرنفل الاحمر وتنتظر ان افسح لها في المجال .

لم تبك ولم تهل التراب على راسها وانما جثت الـى جانب القبر ترتب مـا بيدها من ازاهير . احتفرت حفرة صغيرة بأصابعها موضع الرأس وزرعت شتلة حبق . وكان هو يرقبها بتبسم حزين . واشرعة لدموع بيضاء تمخر عباب عينيه دون ان تحط على شاطيء . لثمت التراب ، واخذت

« كمشة » منه في يدها وانسحبت بهدوء لتغادر بصمت جليل وما ان ابتعدت حتى التفت الي :

ــ ما رايك بهذه النهاية لقصتك العتيدة ؟

ــ انها ليست النهاية ، انها البداية فقط .

غمرني بنظرة حانية متعجبة :

ــ اراك توشك ان تصبح قساميا ؟

ــ بل اراني اصبحت منذ ان التقيتك دون ان ادري .

ــ وهل ستتخلى عن الكتابة .

ــ وهل يمنع ان يكون الكاتب قساميا .

ــ بل على العكس يا بني ، انني احلم بأن أرى الكتاب والشعراء في صفوف القسامين . فهذا دليل على انني لم اكن على خطأ . الا تذكر ان اول ما عملته حين حللت هذه الديار هو افتتاح مدرسة ليلية لتعليم الاميين وتثقيف نواة الثورة المقبلة .

ــ وكيف سأتجه الآن ، لقد وعدتني بمد يد المساعدة منذ البداية ، احسني ضائعا لا اعرف لي أتجاها .

ــ حذار من الضياع ، انه الآفة التي تبتلع الثورات . فالثائر الحق هو الذي لا يفقد راسه في الملمات . عليك بمتابعة المحاكمة .

ــ وماذا فيها ؟.

ــ انها ليست محاكمة عادية ، انها جزء من المهمة الموكولة الى الاخوان فهم سيحولونها الى مناسبة دعاوية لمبادئنا . ولتحريض الجماهير على الاستمرار في الثورة

وعدم التوقف او الاستكانة للزعامات التقليدية . على أية حال ان الاشهر القليلة القادمة ستكون حبلى بالاحداث الجسام .

ـ وهل تعتقد انهم سيستطيعون الاستمرار بدونك ؟

ـ ان لم يفعلوا فأنا منهم براء . انا لست قائدا تقليديا لقد علمتهم في البداية حقـا ولكنني كنت واحدا منهم ولـم اغادرهم الا وكـل منهم قسـام واكثر . أتدري لماذا كنت احب واكرم أبو ابراهيم الكبير ، لانه كـان اكثرهم معارضة وجرأة في طرح آرائه حتى اذا راى اجتماعنا علـى رأي كان اكثرنا انصياعا لارادة المجموع ، وانضباطا بالصيغة النهائية لاوامر الثورة . وسترى انهم سيكونون العصب الحقيقي لكل ثورة فلسطينية مقبلة .

ـ وهل سيكون هناك اكثر من ثورة ؟

ـ ثورات عديدة الا انها في النتيجة واحدة ، فالانتصار فـي النهاية للحق والعدالة ، للشعب . فالطريـق طويـل (بابتسام) وكمـا قلت قبـل قليل انهـا ليست سوى البداية .

ـ قبل ان تمضي احب ان اسأل : لماذا يكـون لشجـرة البرتقال كل هذا الجمال . صغيرة الحجم كثيرة العطاء واذ تضيء على سمرة الارض بخضرتها العـاشقة ، تبدو وكأنها عين خضراء في وجه حسناء لافحة السمرة ...

يجيبني بتبسم هو كالاغراق في الضحك :

ـ وهل عدنا الى الشعر ؟ الى اللقاء ...

وبانتظار بدء المحاكمة . اخذت اتسقط اخبار القساميين الذين نزلوا تحت الارض كما يبدو . فأصبح من شبه المستحيل ان التقي بواحد منهم وان كانت اخبارهم ما فتئت شغل البلاد الشاغل . فبعد ايام ضجت البلاد بخبر اغتيال الجاسوس احمد نايف الذي وشى بخروج القسام وجماعته . فقد وجده البوليس مرميا على اطراف غابة يعبد ، حيث كانت المعركة غير المتكافئة وعبثا حاولت قوات البوليس الاهتداء الى قاتليه دون جدوى . برغم الاضطهاد الذي لاقاه سكان القرى المحيطة بالمكان .

اما الاغتيال الثاني الذي هز البلاد طولا وعرضا فهو الذي نفذ في الضابط حليم البسطة مدير القلم السياسي في شرطة حيفا .

فقد حاول اثنان من القساميين قتله في البداية ولكنه جرح ولم يقتل . واصبح لا يسير دون حراسة ولم يلبث القساميون ان شكلوا فرقة اغتيال كاملة . وهاجموه في رابعة النهار وفي احد شوارع حيفا حيث انهالوا عليه بالرصاص ، فهرب مرافقوه وقد قطع السير في ذلك الشارع ولم يصب احد من الاهلين بأذى . وقد استقرت في جسده سبع عشرة رصاصة ولم يغادروا المكان الا بعد ان تأكدوا من موته . وقد افرغ احدهم بضعة رصاصات في رأسه للتأكد من ذلك . كان الاسلوب جديدا والخطة محكمة وكانوا للمرة الاولى في تاريخ الثورة الفلسطينية يرتدون نوعا من الاقنعة التي تخفي وجوههم وشخصياتهم .

كنت فرحا ككل الناس بمقتل هذا العميل الكبير .
فذهبت الــى الزيتونة الهرمة على امل اللقاء بصديقي الشيخ.
ولم يكد يستقر بــي المقام ، حتى اطل مبتسما كعادته .
ـ ها . اراك اصبحت تعرف الطريق الى الزيتونة لعتيدة كلما اردت الالتقاء بي . ما هي آخر اخبارك .
ـ البسطة ، لقد قتلوه . وبصورة القت الرعب في قلوب كل الخونة والمتعاملين .

ـ الواقع ان قتله على هذا الشكل الهدف منــه هــو ان يتحقق ذلك وبرغم انني كنت دائما ضد الاغتيال الفردي. الا انه مــع الجواسيس كل شيء يجوز ... على أية حا ل، ستسمع في السنوات القليلة القادمة بالكثير مــن الاغتيالات التي ستنفذ بحق كــل متعاون مــع العدو . وهناك لائحة طويلة بأحكام صادرة سلفا ستنفذ برمتها في الاوقات المناسبة . أسمعت « بالمستر اندروز » حــاكم اللواء الشمالي ؟
ـ اجل ، وما خطبه ؟

ـ انه على راس القائمة . ولكن لن ينفذ فيه حكم الموت قبل عام وربما بعض العام ايضا . فقد بعثوه من لندن ليروج لمشروع سخيف يقسمون بــه فلسطين الــى قسمين ، واحد لليهود وآخر للعرب ، تصور ... ومهمة اندروز هذا ان يهيء له المناخ المناسب لاعطائه صفــة الشرعية ، اخبرك بذلك لاعطيك فكرة عن مدى دقة التنظيم فــي التخطيط والتنفيذ . ولن ينفذ فيه الحكم بالاعدام قبل

ان يسفر عن حقيقته ويعلن مشروعه ليعرف الناس لماذا قتل . وليكون في موته عبرة لكل من تسول لـه نفسه المساس بوحدة التراب الفلسطيني .

ــ وهل سمعت بأخبار فرحان السعدي . لقد اعلن الثورة في منطقة نابلس وطول كرم وقد قتل في اليومين الماضيين ثلاثة من المستوطنين الصهاينة .

ــ بارك الله بهذا الشيخ الجليل . على اية حال لا تبالغ ، كعادة شعبنا ، في اطلاق الالقاب والكلمات الكبيرة . ان ما يقوم بـه لا يعدو ان يكـون استمرارا لما كنا فيه ومع جماعة قليلة العدد والعدة تماما كمـا يقوم بقية رفاقه في الشمال وغـور بيسان بالهجمات المتفرقة والاغتيالات السياسية لارهاب المتعاملين وسماسرة الاراضي . انه في الثمانين من عمره الآن ، ولـن يمنحه الزمن الفرصة الكافية ليطور عملياته الـى حركة ثورية متكاملة . بارك الله فيه . تصور ابـن الثمانين ينظـم ويدرب ويقـود ويقاتل . ان قلبي معه هـذا الاخ الطيب الرحيم . أتعلم ان نشاطاته هـو والآخرين اقلقت الانكليز والمستوطنين لدرجة من ان حكومة الانتداب اتصلت بكـل مـن حكومتي الاردن وسوريا لمساعدتها في قطـع الامدادات عنهم عبر الحدود . مسكين شعبنا كـم هـو طيب وسخي . فبرغم انهم يعانون هناك ، كما نعاني مـن الفرنسيين والانكليز فهم لا يتورعون عن مد يد العون الى جماعتنا هنا .

ــ وايضا الزعمـاء التقليديون بعـد ان احسوا ان الخطر

يقترب من مصالحهم نتيجة لانتشار اسلوبكم الجديد في القتال رفعوا مذكرة الى المندوب السامي « المستر واكهوب » يطالبون فيها ببعض الاصلاحات السريعة لتخدير الناس والحيلولة دون انتشار الافكار والاساليب الجديدة .

ـ هذا هو اسلوبهم الخسيس في الاصلاح . ولكنهم سينالون جزاءهم العدل ، ان لم يكن اليوم ففي المستقبل القريب او البعيد الا انهم في النتيجة سيلاقون القصاص الذي يليق بتعاونهم الاخطر من تعاون العملاء المكشوفين . لهذا كنت قد حللت قتل بعضهم ، لانني اعرف خلفيات مسرحيتهم الباهتة التي مثلوها في الماضي ويمثلونها اليوم على شعبنا الطيب .

ـ اذا كانت نشاطات القسامين الحالية غير كافية لان تصبح ثورة حقيقية متكاملة . فما هو مصيرهم في المستقبل ؟

ـ لا خوف عليهم . سبق ان قلت لك . انهم سيكونون العصب الحي لكل ثورات شعبنا المقبلة . المهم انهم تعلموا ويعلمون مناضلينا الاساليب الجديدة في الثورة .

التنظيم الدقيق والسري في الغالب الى جانب التثقيف والتدريب والرؤية الحسنة . انهم تعلموا وسيعلمون رفاقهم الحساب والتخطيط . والثورة فكر واسلوب قبل ان تكون نتائج قريبة رغم تقديري لذلك . المهم ان التطور النوعي في الاساليب الثورية عند شعبنا قد حصل .

– ومع ذلك فمصيرهم القريب يشغل تفكيري .
– لقد كان آخر امر اعطيته لهم . ان يلتحقوا بأخي وصديقي سعيد العاص ورفيقه عبد القادر الحسيني اذا أعيتهم السبل في المتابعة لوحدهم . بالمناسبة سعيد من مدينة حماه في سوريا الوسطى .
– الحسيني ، أليس ابن عائلة كبيرة ؟
– برغم ايماني العميق ، بأن الفقراء هم اصحاب المصلحة الحقيقية في كل ثورة . الا ان هذا لا يمنع . خاصة في مرحلة التحرير والكفاح الوطني . ان « يخون » بعض ابناء العائلات الكبيرة مصالحهم ، ويندفعوا في تيار الثورة ، ولو عدت الى تاريخ الثورات في العالم لوجدت أروع الشواهد على ما اقول .
– وهل اطلعت على تاريخ الثورات في العالم ؟

ولاول مرة اراه يغرق في الضحك .

– يا بني ، الثائر الحقيقي ، هو من ثقف ، نفسه كما يجب واستفاد من تجارب الآخرين ليس بالضرورة ان يتخرج من أرقى الجامعات . ولكن المهم الثقافة ، وبين رفاقي الذين تعلموا القراءة والكتابة على يدي من هم الآن في مستوى من الثقافة السياسية والثورية لا يحلم بمثله الكثيرون من خريجي الجامعات .
– اطرف ما في تنظيم السعدي كما سمعت انهم يرفضون انضمام « الافندية » الى صفوفهم .
– الواقع ان ثقتهم ضعيفة « بالافندية » كما دعوتهم الا ان

لكل قاعدة استثناء والمثقف يمكن ان يكون ثوريا وابـن العائلة الكبيرة ، يمكن ان يصبح ثائرا حقيقيا كعبد القادر.

عند الزيتونة الهرمة ، التقيته بعد مدة ، كاسفا حزينا مهموما . واذ سألته عن سبب حزنه اجاب :

ـ لقد اجهزوا عليه ، ذلـك الشيـخ الطيب الجليل ، لقد فاجأوه في فراش العلة وحوله نفر قليل من صحبه وقد عذبوه طويلا ليعرفوا منـه ، اسمـاء التنظيم ومصادر امداداته فلم يبح بحرف واقتادوه الى ساحة الاعدام وهو شبه جثة . ما حزنت على احد حزني عليه ، انهـا المـرة الاولى التي يسيطر فيها الحزن علي واحسني على شفا اليأس ، رغم رفضي الدائم له . فرحان السعدي . انه ظاهرة تحول عظيمة في تاريخ امتنا . لقد كان فتي النفس وقاد الذهن نبيل الفؤاد رحمات الله عليه .

ـ مالي اراك كالشبح الضارب في العتمة مـا يقر لك قرار . اراك على عجل وما تلبث ان تختفي . اتراك سئمت صحبتي ولقاءاتي .

ـ ابدا يا بني ، كل ما هنالك انني ابدا منشغل الفكر والفؤاد على رفاق الجهاد . في الماضي كنت بينهم . اذا اعوزتهم الحيلة او احتاجوا الـى نصح وارشاد لبيت . اما الآن فانني اراقبهم من خلف ستار شفيف ولا املك ان اكلمهم او اشاركهم اعباءهم ومن هنـا ترى اثـار التجهم والقلق بادية علي . رغم انني على أتم الثقة بنتائج سنوات التدريب الطويلة التي قضيتها معهم .

ـ سمعت انهم سيحاكمون سبعة منهم . وعلمت ان مجموعة من المحامين قد تبرعت بالدفاع عنهم وعلى رأسهم احمد الشقيري ومعين الماضي . كما ان القاضي الانكليزي الاصلع « هبرد » هو من سيحاكمهم يعاونه النائب العام ، اللبناني الاصل ، منير ابو فاضل .

ـ لا اعتقد ان الانكليز سيبطشون بهم في هذه المحاكمة فالبلاد كلها الى جانبهم . والمحامون جهودهم مشكورة رغم ان بعضهم ما فعل الا من اجل الدعاوة السياسية . وان كانوا لن يحتاجوا اليهم . فالغاية من ذهابهم الى المحاكمة هي ان يعلنوا قضيتهم على الملأ . وهم يعرفون بالتفصيل ماذا عليهم ان يقولوا وكيف يجب ان يتصرفوا . اذهب اليهم وسترى مصداق ما اقول .

في سجن التوقيف في بلدة « جنين » كانوا في « قاووش » منفردين عن بقية السجناء . نمر السعدي وعربي بدوي وقد التأمت جراحهما . معروف الحاج جابر ، اسعد المفلح ، حسن الباير ومحمد يوسف .

تسمع جلبة في الخارج يدخل على اثرها المحاميان الشقيري والماضي .

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته ، يرد الجميع .

يبدو على الشقيري وزميله القلق والاضطراب بينما تلوح على وجوههم السكينة والرضى . يتحدثان اليهم مطولا حول

قانونية وضعهم وصعوبة الدفاع عنهم فيرد حسن البابر بلهجة الانسان البسيط والواضح .

ــ لا تتعب نفسك يا صديقي ــ الى الشقيري ــ انت وصحبك من المحامين ، اننا نعرف حقيقة منا نحن قادمون عليه لقد حقق معنا البوليس ، واعترفنا بكل شيء من الالف للياء .

ــ اعترفتم بكل شيء ... وماذا تركتم لنا للدفاع عنكم ؟

ــ الواقع اننا لم نترك لكم شيئا . لقد اعترفنا بكل شيء .

ــ ولكن لعلنا نستطيع ان نقنع المحكمة انكم اعطيتم اقراركم تحت الضغط والتهديد والضرب . هل ضربتم ؟

ــ ولماذا يضربوننا ــ وباعتقادي انهم لا يجرؤون ــ اذا كنا قد قلنا لهم كل ما جاؤوا بشأنه . نحن ثوار يا صديقي ولسنا مجرمين عاديين .

ــ ولكن ...

ــ لا لكن ولا « بطيخ » نحن نشكر لكم ما جشمتم انفسكم من عناء في سبيلنا . ونزولكم الى المحكمة شيء ضروري من ناحية كونه مظهرا من مظاهر التعاطف مع حركتنا فأهلا بكم وشكرا لكم .

في قاعة المحكمة في اليوم التالي . يدخل القاضي هبرد بمظاهر احتفالية مبالغ فيها . يأخذ النائب العام مكانه . المناضلون السبعة في قفص الاتهام وبضعة عشر محام بلباسهم التقليدي يقفون في الجهة الاخرى ، يقوم الشقيري باسم المحامين طالبا الى النائب العام ان يراجع ملف القضية فيجيبه :

ـ دعك يا استاذ من ملف القضية ، لقد اعترفوا بكل شيء . وما علينا الا ان نستعرض الاحداث التي جيء بهم بشأنها ونسألهم ان كانوا يودون تغيير شيء في افادتهم .

يسألهم القاضي بعد ان يقوم النائب العام بعملية عرض سريع للقضية :

ـ هل تريدون ان تغيروا ما جاء في افاداتكم ؟

يقف حسن الباير متحدثا باسمهم ايضا :

ـ اننا نصر على ما جاء في افادتنا . نحن جماعة ثوار ولسنا مجرمين عاديين لنلجأ الى مثل هذه الاحابيل لقد انتظمنا في « الجهادية » بزعامة الشيخ القسام معلمنا وقائدنا واخونا رحمه الله . في سبيل ايقاف سيل الهجرة الصهيونية وطرد المستعمرين الانكليز . يتابع برغم اعتراض القاضي على الصيغة . ولقد نذرنا انفسنا للشهادة في سبيل الوطن . ولم يكن لنا شرف الاستشهاد في معركة يعبد . واننا لنأمل بأن نحظى بهذا الشرف هنا او في ساحات معارك اخرى .

يرتفع التصفيق في بعض ارجاء القاعة ، فيطلب القاضي الى الحضور السكوت وبين حيرة المحامين ، وذهول هيئة المحكمة المفعم بكثير من الاحترام والتقدير يصدر القاضي احكامه التي تتراوح بين الخمسة عشر عاما والسبعة اعوام في الاشغال الشاقة ويرفعها الى محكمة الجنايات العليا

للتصديق عليها رغم ان التهم الموجهة اليهم تقتضي في كـل الاحوال ، قانونا ، الاعدام .

يتلقى المتهمون الحكم بهدوء عجيب وبسمـات الرضى على وجوههم . تنصرف هيئـة المحكمة ينصرف الحضور ويؤخذ المحكومون السبعة الى السجن ، وحين لـم يبـق في القاعة الخاوية من احد ، وكنت ما ازال تحت تأثير حالة من الذهول الخاشع قمت لاغادرها وكان هو في الزاوية القريبة فقام ليسير الى جانبي .

ـ ألم اقل لك يا بني . غدا ستنقل اخبار المحاكمة الصحف وكل وسائل النشر . وسيعرف الرائح والغادي بكـل تفصيلاتها . وسيكون لها أعمق وابعد الاثر في نفوس الجماهير الواسعة . صدقني لقد اشفقت علـى محـامي الدفاع . هؤلاء المثقفون ، ما ابعدهم عن واقـع الثورة والثوريين المهم في كل حركتنا ، برغم النتائج الضئيلة التي حصلنا عليها اذا ما قورنت بطموحاتنا ان هؤلاء الفلاحين البسطاء قد بدأوا بأخذ زمام المبادرة من ايدي الزعامات التقليدية وحين تصير الامور في ايديهم نهائيا لن يكون ثمة خطر او اخطار على سلامة الاوطان .

الفصل السادس

انها ليست سوى البداية

لم أعد التقي به الا في فترات متباعدة ، مرة كان حزينا دامع العينين ، على مهابة . حكى لي فيها عن حزنه العميق لاستشهاد صديقه سعيد العاص في فلسطين ، القسطل ، عام ١٩٣٦ .

وبعد عام عبر لي عن فرحته لاغتيال حاكم الشمال العسكري المستر اندراوز وبعد اكثر من عشرة اعوام مر بي سريعا وفي عينيه ذات الحزن الذي رأيته يوم استشهد العاص . وكان عبد القادر الحسيني قد استشهد في القسطل هو الآخر .

ومن بعدها لم أعد اراه اطلاقا . حتى لأوشكت ان انسى ملامحه ورنة صوته الجهوري العميق الجرس ، المشبع بالرجولة والمرارة والصدق .

ذهبت لايام الى مكتب صديق في احد المكاتب التابعة لاحدى المنظمات الفدائية وما ان دخلت عليه حتى كادت

تصفعني المفاجأة ، كانت هناك تجلس هادئة بسمرتها المحروقة وصفاء عينيها المتوقدتين ، بشوق حب لا يفصح عن نفسه ، وشبه حزن دفين ، انها فاطمة لم تتبدل ، لم تبدل منها الايام شيئا . خشيت ان اتحدث اليها . أن اقول لها انني اعرفها وانها لا تستطيع ان تخفي حقيقتها عني ببنطالها ولباسها الحديث ، الا انها لم تلبث ان نهضت من مكانها واقتربت مني ودون اية مقدمات قالت :

ـ الا اعرفك . انا متأكدة من اننا التقينا سابقا ، ألست الاستاذ . . . الذي كنت تعلم الادب العربي في صور قبل اثني عشر عاما ؟

ـ اجل انا هو . . .

اكملت :

ـ الا تذكر انك كنت استاذي ، ألم تعرفني ؟

ـ وقلت في تردد دون ان اصارحها في حقيقة معرفتي لها :

ـ وجهك ليس غريبا علي . ولكن لا اذكر انني درستك .

ـ اجل كنت تلميذتك . انا ليلى . . .

ـ وقلت في نفسي انها تصر على التمويه اذن . ولكنها كانت صادقة التعبير مؤمنة كـل الايمان بما تقول ، فتابعت حديثي في الوجهة التي اختارت وكان صديقي وتلميذي القديم يقف الى جانبي :

ـ هل كنت مع هلاني في ذات الصف ؟

ـ لا ، كنت اعلى منه بصف واحد .

ـ اذا لم تكوني تلميذتي .

واطرقت قليلا لتوافقني :

ـ اجل تذكرت ، كنت اتردد على المدرسة من حين لآخر وكنت اراك هناك ، ماذا حل بأيامك ، ماذا تعمل الآن ؟

ـ حاولت مرة تنكب طريق الفداء مثلك، فحيل دوني وذلك ، وعوقبت بسجن طويل . فعدت الى التدريس والكتابة وانا الان اوشك ان انتهي من كتابة رواية طال عليها الزمن .

ـ واستأذنت ليلى وذهبت في مهمة خاصة بينما جلست الى جانب صديقي وكان مكتبه يعج بالحركة ، فتيات وفتيان كلهم يرتدون زي فاطمة الجديد يروحون ويغدون وانا ارشف قهوتي بذهول وصمت دون أن اجرؤ على مصارحة احد بحقيقة الفتاة التي كانت تحدثني قبل قليل . فثمة حقائق في الحياة تفقد الكثير من بهائها وعظمتها اذا ما حاولت شرحها او مناقشتها .

لايام ، دخلت الى مقهى « الرائد » قرب الجامعة العربية في بيروت فوجدت مجموعة من الفتيات والفتيان من شتى الاقطار العربية يتجمهرون حول آلة تسجيل ويستمعون الى الرسالة الصوتية التالية وكان صوته يأتيني هادئا عميقا واكثر فتوة وشبابا فاقتربت استمع :

« الآن اعيش قمة سعادتي لانني سأفتدي بعد قليل وطني لاني سأدك اسفينا جديدا في الكيان الصهيوني .
يا امي ، لي الفخر ان اخطو الى تحقيق اهدافي التي هي من تصميم شعبي اعرف انني امضي الآن ولن اعود .
واعرف ان الملايين من الثوريين في العالم سيتابعون الطريق ، يا رفاقي ما الذ طعم الموت حين يمتزج بتراب بلادي نموت اليوم ليس هربا من الحياة ولا لاننا بائسون الموت في سبيل الهدف حياة جديدة رائعة .

أشعر الآن بثقل المخيمات ينزاح عن صدري ووحول الازقة تتحول الى طرق واسعة معبدة في وجه الشمس . وباطفال بلادي وقد استبدلوا وجوههم التي عايشها الحزن

بوجوه جديدة تعيش على السعادة والامال . لا خوف من الحاضر ولا رهبة من المستقبل .

احبكم يا اطفال بلادي ، ولذا سأصنع لكم طريق الفرح فحافظوا عليه وقدموه هدية لمن يأتي بعدكم .

يا والدتي العظيمة ، لكي لا تلدي في العراء اطفالا مشوهين اصنع لك بيتا لا تقتحمه الوحوش . تنموا فيه امانيك ويكبر اطفالك .

يا والدي حدثتني كثيرا عن الارض التي كبرت فيها وكنت معطاء مثلها ، شاهدتك تحلم بالعودة ومن اجلك ولأحقق حلمك امضي في هذه الطريق .

اما انتم يا اخوتي فكي لا تستعطوا حبات الجوع وتظلوا ابناء للامم المتحدة تجود عليكم بالفتات ولكي لا تقتلكم المؤامرة ، سأمضي في الطريق ، فاتبعوني في طريق حياة الكرامة والفرح ، اناديكم . اصرخ في وجوهكم . وسيظل صوتي في هذا الكون وسيبقى ليعود الى آذانكم صدى يسلب منكم النوم ومن اجسادكم الراحة الى ان يتحقق الهدف الذي من اجله ضحيت .

يا رفاقي استودعكم الآن . اقبل كل واحد منكم ولن اغيب عنكم طويلا . سنلتقي قريبا وانا واثق من ذلك ولا انسى لحظة واحدة . ان قضية الحرية واحدة في هذا العالم . فيا اخوتي في الوطن العربي الكبير ويا ايها الثوار في العالم كله . ناضلوا لاسقاط المؤامرة وحطموا ابراج الرجعية .

اشعر الآن بسقوط الاستسلام واشعر برحيل الالم عن

شعبنا ونسائم الحرية تهب على ربى ارضنا الطاهرة .
اما انتم يا ابناء وطني الذين تسكنون المخيمات لقد نمت معكم ، وشربنا معا كؤوس النكبة . وكانت احلامنا ترفرف على روابي الوطن المحتل ، وكنا نشدو للايام المقبلة اناشيد الثورة والحرية .

من الاعماق اناديكم . ان العمل الثوري يا اخوة في حاجة اليكم ، قفوا في وجه المؤامرة . حطموا واقع الاستسلام وارفضوا الهزيمة . ان الطريق واضحة جدا . فانظروا الى هذه الطريق . طريق الفداء والثورة .
هذا ما اريد ان اقوله لكم . وبغير الدماء لا يمكن ان تأتي الحرية . ووضع قدم واحدة في اتجاه التسويات يعني الانزلاق الى مهاوي الخيانة .

احبائي ، اودعكم ، واتمنى لو كان بمقدوري العودة اليكم ثانية لاقاتل اعداءنا مرات ومرات ... » .
واذ انتهت الرسالة الصوتية هذه . سألت الجماعة .
ـ من اين اتيتم بهذا التسجيل لصوت القسام ؟
وتلفتوا الي باستغراب واشفاق ، اجابني واحد منهم :
ـ اي قسام يا صديقي ، لقد استشهد الرجل في العام ١٩٣٥ ونحن الآن في العام ١٩٧٤ . انها آخر كلمات سجلها الفدائي الرفيق ابو خالد . احد الفدائيين الثلاثة الذين قاموا امس بعملية « كريات شمونة » ـ الخالصة ـ في الارض المحتلة .
فانسحبت بين نظرات التعجب والاستغراب المنصبة

علي دون ان احير جوابا . لم اشأ أن اقول لهم انـه صوت صديقي القسام ، انه هو بكل تأكيد . فثمـة حقـائق تفقد قيمتها الرائعة وبهاءها ، ان تحدثت عنها اكثر مما يجب ، ان افضت في شرحها وتفنيدها ، وغادرت المقهى والفرحة تملأ جوانبي وصدى الصوت العميق يرن في اذني وكلمات صديقي تملأ الافاق « انها ليست سوى البداية » .

فهرست

هذا الكتاب

يشكل الشيخ عز الدين القسام علامة بارزة مضيئة في تاريخ النضال العربي الحديث ، مـــا أحوجنا إلى الاستنارة بهديها .

وفي هـــذه الرواية يستند المؤلف إلى حقـــائق موضوعية كما يقدم النموذج الثوري ، العفوي والرائع ، الذي يمثله القسام واخوانه من اعضاء « الجهادية » .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الثمن : ٢٥٠ قرشاً لبنانياً
أو ما يعادلهـــا